قسوة وتعنّت بني إسرائيل وتحريف التوراة

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ البقرة: ٧٤ - ٨٢ .

أما تفسيرها بحسب:

*** ابن كثير:**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات

الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾الحديد: ١٦ . فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشدّ قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقّق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٤ . والمعنى: وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تُدْعون إليه من الحق.

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾الكهف: ٧٧ . قال الرازي والقرطبي: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾الأحزاب: ٧٢ ، وقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾الإسراء: ٤٤ الآية، وقال: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾الرحمن: ٦ ، وقال: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾فصلت: ١١ . وفي الصحيح: ((هذا جبل يحبنا ونحبه))، وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه.

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى:﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ ﴾البقرة: ٧٤ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم (أو) ههنا بمعنى الواو تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾الإنسان: ٢٤ ، وقوله:﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ المرسلات: ٦ ، وكما قال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قَدَرَ

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة وكانت له قدراً، وقال آخرون: (أو) ههنا بمعنى بل فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧ ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ الصافات: ١٤٧ ، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ النجم: ٩ ، وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة: ٧٤ عندكم حكاه ابن جرير. وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين: إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة، قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة، وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره، (قلت)، وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ البقرة: ١٧ مع قوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة: ١٩، وكقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ النور: ٣٩ مع قوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ النور: ٤٠ الآية أي: إنْ منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا، والله أعلم. عن ابن عمر: أن رسول الله (ص) قال: ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي)). وروي مرفوعاً: ((أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا)).

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ البقرة: ٧٧ .

يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ أي: ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات

البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجليّة، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ المائدة: ١٣ وليس كلهم قد سمعها، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها، قال السدي: هي التوراة حرّفوها. وقال قتادة في قوله:﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقوله ووعوه، وقال أبو العالية: عمدوا إلى مما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد (ص) فحرفوه عن مواضعه وقال السدي:﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنهم أذنبوا، وقال ابن وهب في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم، يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطل والباطل فيها حقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾البقرة: ٧٦ ،. قال ابن عباس ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي قالوا: إنَّ صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة.﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قالوا: لا تحدثوا العرب: فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبركم أنه ما الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى:﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾البقرة: ٧٧.؟ وقال الضحاك: يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد (ص) قالوا آمنا، وقد السدي: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكانوا يقولون إذا دخلوا

المدينة نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله (ص) وأمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر، فلما أخبر الله نبيه (ص) قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا، فيقولون: بلى، قال أبو العالية: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد (ص)، وقال قتادة: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ ﴾ كانوا يقولون سيكون نبي فخلا بعضهم ببعض فقالوا: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾.. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾.قال: قام النبي (ص) يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلاَّ منكم ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم. وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدّثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم، مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم. وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ . يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد (ص) وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم. وقال الحسن: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد (ص) وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد (ص) بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجّهم أصحاب محمد (ص) بما في كتابهم عند ربهم ﴿ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمد (ص) آمنا.

﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٨ - ٧٩ .

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي: ومن أهل الكتاب، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر في قوله تعالى:﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: لا يدرون ما فيه، ولهذا في صفات النبي (ص): أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾العنكبوت: ٤٨ ، وقال (عليه الصلاة والسلام): ((إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا)) الحديث. وقال تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾الجمعة: ٢

قال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ عن ابن عباس: ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يقول إلاَّ قولاً يقولونه بأفواههم كذباً، وقال مجاهد إلاَّ كذباً، وعن مجاهد: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾البقرة: ٧٨ . قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون هو من الكتاب (أماني) يتمنونها، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه، ومنه الخبر المروي عن عثمان ((ما تغنيت ولا تمنيت)) يعني ما تخرصت الباطل، ولا اختلقت الكذب، وقيل: المراد بقوله: ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ بالتشديد والتخفيف أيضاً أي: إلاَّ تلاوة. واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[الحج/٥٢] الآية، وقال كعب بن مالك الشاعر:

تمنّى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حِمَام المقادر

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ يذكبون، وقوله تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾البقرة: ٧٩ . الآية. هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وعن ابن عباس الويل: المشقة من العذاب، وقال الخليل الويلُ: شدة الشر، وقال

سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل تفجع، والويح ترحم، وقال غيره: الويل الحزن. وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ قال: هم أحبار اليهود، وقال السّدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً، وقال الزهري عن ابن عباس: ((يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيّه أحدث أخبار الله تقرأونه غضاً لم يشب، وقد حدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم)).

وقوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم ﴾ يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به أولئك الناس السفلة وغيرهم.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾البقرة: ٨٠

يقول تعالى إخباراً عن اليهود في ما نقوله وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسّهم النار إلاَّ أياماً معدودة، ثم ينجون منها. فردّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا ﴾ أي: بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى (بأم) التي بمعنى (بل) أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. قال مجاهد عن ابن عباس: إنَّ اليهود كانوا يقولون: إنَّ هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذّب

بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس: قالوا لن تمسنا النار إلاَّ أربعين ليلة وهي مدة عبادتهم العجل، وقال قتادة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل، وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله (ص) فقالوا: لن ندخل النار إلاَّ أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون، يعنون محمداً (ص) وأصحابه، فقال رسول الله (ص) بيده على رؤوسهم: ((بل أنتم خالدون ومخلدون لا يخلفكم فيها أحد))، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ الآية. وعن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله (ص) شاة فيها سم، فقال رسول الله (ص): ((اجمعوا لي من كان من اليهود هنا))، فقال لهم رسول الله (ص): ((من أبوكم؟))، قالوا: فُلان، قال: ((كذبتم بل أبوكم فلان))، فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟))، قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله (ص): ((من أهل النار؟))، فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله (ص): ((اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً)). ثم قال لهم رسول الله (ص): ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟))، قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟، فقالوا: نعم، قال: فما حملكم على ذلك؟، فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإنَّ كنت نبياً لم يضرك».

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ البقرة: ٨١ - ٨٢

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل

سيئة ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة، فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى:﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾النساء: ١٢٣ - ١٢٤ . قال ابن عباس: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ ﴾

أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة، وفي رواية عن ابن عباس قال: الشركُ. وقال الحسن: السيئة الكبيرة من الكبائر، وقال عطاء والحسن: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: أحاط به شركه، وقال الأعمش:﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب. وعن عبدالله بن مسعود أنّ رسول الله (ص) قال: ((إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)) وإنَّ رسول الله (ص) ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأجّجوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له.

*** الشيخ مغنية:**

﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾البقرة: ٧٤

الإعراب: أو هنا للتقسيم، أي أن بعض قلوبهم كالحجارة، وبعضها أشد قسوة منها، وأشد خبر مبتدأ محذوف، وقسوة تمييز، والضمير في (منه) يعود إلى (ما)، وفي (منها) يعود إلى الحجارة.

المعنى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي كان الواجب على أسلافكم ـ يا يهود المدينة ـ أن يعتبروا، وتلين قلوبهم بعد أن شاهدوا ما شاهدوا من الخوارق والمعجزات، ومنها إحياء القتيل... ولكنهم لخبثهم فعلوا عكس ما تستدعيه هذه الخوارق، فأفسدوا وقست قلوبهم، حتى كأنها قدّت من صخر، بل إن بعضها أشد قساوة وصلابة، ذلك: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ .

وتسأل: أن الأنهار ماء ما في ذلك ريب، فكيف صح تقسيم الماء إلى أنهار وماء؟ وهل هذا إلا كتقسيم البناء إلى بيت وبناء؟

الجواب: إن الآية الكريمة قسمت الماء إلى قسمين: كثير، وهو الأنهار، وقليل وهو العيون والآبار، وقد عبرت عن هذا القسم القليل بلفظ الماء.. ولذا أسندت التفجير إلى الكثير، لأنه يشعر بالكثرة، والتشقق إلى الماء، لأنه يشعر بالقلة.

ومهما يكن، فإن الغرض أن سبحانه وتعالى قد فضّل الصخور والحجارة بشتى أقسامها وأنواعها على قلوب اليهود، لأن الصخر قد يتصدّع، فيخرج منه الماء، إن الحجر قد يتخلخل ويتحرك عن موضعه، أما قلوب اليهود فإنها لا تندى بخير، ولا يحركها جمال، ولا تتجه إلى هداية.

وتسأل: إن الحجارة لا حياة فيها ولا إدراك، حتى تخشى الله، فما الوجه في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾؟

وقد أجيب على ذلك بأجوبة كثيرة، أقربها جوابان: الأول: أن هذا مبني على الافتراض، أي لو كان في الحجارة فهم وعقل كاليهود لهبطت من خشية الله. ومثل هذا كثير في كلام العرب.

الجواب الثاني: إن الحجارة من شأنها أن تخشع وتخضع لله الذي تنتهي إليه جميع الأسباب الطبيعية وغيرها، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٤ . ويأتي التوضيح حين نصل إلى هذه الآية إن شاء الله.

وتسأل: إن قولك يخالف الشائع الذائع (ما من شخص إلا وفيه جانبان حسن وغير حسن) وقد ركزت قولك على جانب واحد، وأغمضت الطرف عن الجانب الآخر؟

الجواب: إن نفحة الخير التي نراها بعض الحين من الشرير إنما جاءت فلتة ومن غير تصميم سابق. على أن هذه القضية، وهي (ما من شخص إلا وفيه جانبان) إنما تصح في حق غير اليهود، أما في حقّ اليهود فلا.

لأن كل ما فيهم سيئ وقبيح، ولا جانب فيهم للحسن إطلاقاً.. والدليل على ذلك توراتهم والقرآن الكريم، والتاريخ الصحيح، وعملهم في فلسطين، وغير فلسطين الذي دلّ دلالة واضحة على أن الدين والأخلاق، وجميع العلاقات البشرية عندهم إن هي إلا عملية تجارية، ومنافع شخصية.. وسنعود إلى هذا الموضوع كلما دعت المناسبة.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٧٥ .

المعنى: كل صاحب رسالة يحرص كل الحرص على أن يؤمن الناس بها، فيثبت الدعوة لها في الأوساط أملاً أن يكثر أتباعها وأنصارها، ويتحمل في سبيل ذلك المتاعب والمصاعب، وهكذا فعل رسول الله (ص) وأصحابه.. بثّوا الدعوة إلى الإسلام في كل وسط رجوا أن يكون لها فيه أتباع وأنصار، وكان بين الأنصار ويهود المدينة علاقة جوار ورضاعة وتجارة، فدعوهم إلى الإسلام بأمر النبي، وناظروهم بالحجة الدامغة، والمنطق السليم، وطمعوا أن تتحرك فيهم العاطفة الإنسانية، بخاصة وأنهم أهل كتاب، وبوجه أخص أن أوصاف محمد

(ص) قد وردت في توراتهم تصريحاً أو تلميحاً.

ولما أصرّ اليهود على رفض الدعوة، والاستمرار في الكفر ومعاندة الحق خاطب الله نبيه الكريم وأصحابه بقوله:﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ وقد كان أسلاف هؤلاء اليهود يسمعون كلام الله من موسى مقترناً بالآيات والمعجزات فيحرفونه ويتأولونه حسب أهوائهم، على علم منهم بالحق، وتصميم على مخالفته، وما حال يهود المدينة إلا كحال أسلافهم.. حرّف السلف وجعل الحلال حراماً، والحرام حلالاً تبعاً لهواه، وحرف الخلف أوصاف محمد (ص) الواردة في التوراة، كي لا تقوم عليهم الحجة.

وقال صاحب مجمع البيان: «في هذه الآية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع، وهو عام في إظهار البدع في الفتيا والقضايا، وجميع أمور الدين». ونزيد على قول صاحب المجمع أن في هذه الآية دلالة أيضاً على أن من اتبع الضلال لا يسيء إلى نفسه فقط، بل يمتد أثر إساءته إلى الأجيال، ويتحمل وزر عمله، وعمل من اتبعه على الغواية والضلالة، كما جاء في الحديث الشريف.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٥ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾البقرة: ٧٦-٧٧ .

اللغة: الفتح في الأصل يستعمل للشيء المغلق، والمراد به هنا الحكم، يقال: اللهم افتح بيني وبين فلان، أي احكم بيني وبينه.

الإعراب: ليحاجوكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام.

المعنى: كان بعض يهود المدينة ينافقون ويكذبون على المسلمين، ويقولون لهم: نحن مؤمنون بالذي آمنتم به، ونشهد أن محمداً صادق في قوله، فلقد وجدناه في التوراة بنعته وصفته، وإذا خلا هؤلاء المنافقون برؤسائهم أخذ الرؤساء في لومهم وتوبيخهم، وقالوا لهم في ما قالوا: كيف تحدثون

المسلمين بما حكم الله به عليكم من أتباع محمد؟.. ألا تفهمون بأن هذا إقرار منكم على أنفسكم بأنكم المبطلون، وهم المحقون؟

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾. أي مهما حرص المنافقون على إخفاء نفاقهم، والرؤساء الضالون على توجيه أتباعهم فإن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية.. فأنتم أيها اليهود تكتمون في دسائسكم ومؤامراتكم، والله سبحانه يعلم بها رسول الله الأعظم (ص) ويذهب كيدكم هباء.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٨ - ٧٩ .

اللغة: الأميون واحده أمّي، ومعناه معروف، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، أما وجه النسبة إلى الأمم فلأنه في الجهل كما ولدته أمه، والأماني واحدها أمنية، ومن معانيها تمني القلب، وهو أظهرها وأكثرها استعمالاً، وتستعمل في التلاوة أيضاً، والمراد بها هنا التخرص بلا دليل، والذي يؤيد هذا المعنى ويقويه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ والويل معناه الفضيحة والحسرة، والخزي والهوان، ومثله ويح وويس وويب. والأيدي جمع، واحدها يد، والأيادي جمع الجمع، ويكثر استعمالها في النعم.

الإعراب: ويل مبتدأ، وخبره للذين، ويجوز نصبه على تقدير جعل الله الويل للذين، لأن ويلاً لا فعل له، قال هذا صاحب تفسير البحر المحيط، وقال أيضاً: إذا أضفت ويلاً مثل ويل زيد فالنصب أرجح من الرفع، وإذا أفردته مثل ويل لزيد فالرفع أرجح.

المعنى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي أن من اليهود جماعة أميين لا يعرفون شيئاً من دين الله، وأن قصارى أمرهم التخرص والظن دون أن يعتمدوا على علم.

وبديهة أن هذا الوصف وإن ورد في حق أولئك اليهود، ولكن الذم عام

يشمل كل جاهل يتسم بسمة أهل العلم، ويتصدى إلى ما ليس له بأهل، لأن المورد لا يخصّص الوارد، كما قيل.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن تفسير الكتاب والسنّة لا يجوز بالتخرص والظن، بل لا بد قبل كل شيء من العلم بقواعد التفسير وأصوله، ومراعاة هذه القواعد في بيان مراد الله ورسوله حذراً من الكذب عليهما، والنسبة إليهما دون مبرّر شرعي.

وأول الشروط لصحة التفسير القراءة والكتابة، ثم العلوم العربية بشتى أقسامها من معرفة مفردات اللغة، والصرف والنحو، وعلم البيان، والفقه وأصوله، وعلم الكلام، والإلمام ببعض العلوم الأخرى التي يتصل بها تفسير بعض الآيات، على أن هذه يمكن للمفسر أن يرجع في معرفتها لأهل الاختصاص.

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾هدّد الله سبحانه بهذه الآية كل من ينسب إليه ما ليس من عنده، لا لشيء إلا ليقبض الثمن من الشيطان، وليس من الضروري أن يكون الثمن مالاً فقط، فقد يكون جاهاً، أو غيره من الشهوات والملذات الدنيوية. وكرّر الله سبحانه الويل للمزوّرين ثلاث مرات في آية واحدة، للتأكيد على أن الافتراء عليه، وعلى نبيه من أعظم المعاصي وأشدها عقاباً وعذاباً: ﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾طه: ٦١ .

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨٠ - ٨٢ .

اللغة: المسّ واللّمس والجس من حيث اللفظ متعدد، والمعنى واحد، ويستعمل اللمس كثيراً فيما يكون معه إحساس بالحرارة والبرودة وما إليها.

الإعراب: بلى حرف جواب لإثبات ما بعد النفي، يقال: ما معنى كذا؟

فتجيب: بلى، أي فعلت. ونعم جواب الإيجاب، يقال: فعلت كذا؟ فتجيب: نعم، أي فعلت.

المعنى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ يزعم اليهود أنهم أبناء الله، وشعبه المختار، وأن الناس، كل الناس ـ غيرهم ـ أبناء الشيطان، وشعبه المنبوذ، فالله لا يخلد اليهود في النار، ولا يقسو عليهم، بل يعذبهم عذاباً خفيفاً، ووقتاً قصيراً، ثم يرضى عنهم، أي أنه سبحانه يدللهم، تماماً كما يدلل اليوم الاستعمار عصابة الصهاينة التي احتلت أرض فلسطين.

﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾أي قل لهم يا محمد: أن زعمكم هذا جرأة وافتئات على الله بغير علم.. وإلا فأين العهد والوعد الذي أخذتموه من الله سبحانه على ذلك؟ وإن دلّ زعمهم هذا على شيء فإنما يدل على استهتارهم واستخفافهم بالذنوب وارتكاب القبائح، قال الرسول الأعظم (ص): إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، وأن الكافر ليرى ذنبه كأنه ذباب مرّ على أنفه. وقال علي أمير المؤمنين (ع): «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»، وقول الرسول الأعظم (ص): «كأن الذنب ذبابة تمر على أنف المذنب» ينطبق كل الانطباق على اليهود الذين يزعمون أنهم أبناء الله المدلّلون. وعسى أن يتعظ بهذا من يستهين بذنوبه اتكالاً على شرف الأنساب ومن يثق بنفسه، ولا يتحسّس خطاياها، ولا يقبل النصح من غيره محال أن يهتدي إلى خير. إن العاقل لا ينظر إلى نفسه من خلال غرورها وأوهامها، بل يقف منها دائماً موقف الناقد لعيوبها وانحرافها، ويميز بين ما هي عليه، وبين ما ينبغي أن تكون عليه، ويحرّرها من الأفكار الصبيانيّة، والنزوات الشيطانية، وبهذا وحده ينطبق عليه اسم الإنسان بمعناه الواقعي الصحيح. وفي الحديث الشريف من رأى أنه مسيء فهو محسن ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١.

السيئة تعم الشرك وغيره من الذنوب، ولكن المراد منها هنا خصوص

الشرك بقرينة قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. قال صاحب مجمع البيان: إن إرادة الشرك من السيئة يوافق مذهبنا ـ أي مذهب الإمامية ـ لأن غيره لا يوجب الخلود في النار.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

وتدل هذه الآية الكريمة على أن النجاة من عذاب الله غداً منوط بالإيمان بالصحيح والعمل الصالح معاً، وقد جاء في الحديث الشريف: أن سفيان الثقفي قال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. فقال: قل: آمنت بالله ثم استقم ـ يشير الرسول الأعظم (ص) بقوله هذا إلى الآية [٣٠/السجدة]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾فصلت: ٣٠

. والمراد بالاستقامة في الحديث الشريف والآية الكريمة، العمل بكتاب الله، وسنة رسول الله (ص).

إن زعم اليهود بأنهم أبناء الله، وشعبه المختار يدل على أن الدين والأخلاق في عقيدتهم عملية تجارية، ومنافع شخصية، وكل ما عداها هراء وهباء.

وتقول: إن هذا لا يختص باليهود، بل أكثر الناس على ذلك؟

الجواب: أجل، ولكن الفرق أن اليهود يحقدون على البشرية جمعاء، وأن هدفهم النهائي هو إبادة الناس، كل الناس غيرهم.

*** سيد قطب:**

﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾البقرة: ٧٤

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، رأوا

الجبل يندكّ حين تجلى عليه الله وخرّ موسى صَعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم التهديد ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥ .

كانت صورة الجفاف والقسوة الجدِب هي التي صور الله بها قلوب بني إسرائيل؛ صورة الحجارة الصلدة التي لا تنبض منها قطرة، ولا يلين لها ملمس، ولا تنبض فيها حياة.. وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الحاسية الجامدة الخاوية.. وفي ظل هذا التصوير، وظل هذا الإيحاء يلتفت السياق إلى المؤمنين، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور، فيلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة وبالقنوط من الطمع: «أفتطمعون أن...».

إلاّ أنّ لا مطمع ولا رجاء من أن يؤمن أمثال هؤلاء. فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر إن الطبيعة المؤمنة سمحة هنية لينة، مُنفتحة المنافذ للأضواء، مستعدّة للاتصال بالنبع الأزلي، الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء، وبما فيها من حساسية وتحرّج وتقوى هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرّفه من بعد تعقّله، تحرّفه عن علم وإصرار، فالطبيعة المؤمنة طبيعة مُستقيمة، لتخرج من هذا التحريف والالتواء.

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المُنزّلة عليهم في كتابهم هم الأحبار والربانيون الذين يسمعون كلام الله. المُنزّل على نبيهم موسى في التوراة ثم يحرّفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات البعيدة التي لا تخرج عن دائرته. لا عن جهل بحقيقة مواضعه، ولكن عن تعمّد للتحريف وعلم بهذا التحريف يدفعهم الهوى، وتقودهم المصلحة، ويحدوهم

الغرض المريض! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذي جاء به محمد (ص) وقد انحرفوا عن الحق الذي جاء به نبيهم موسى (ع) وهذا كان سبباً من خراب أُمّمهم، وإصرارهم على الباطل ويعلمون بطلانه، وفي معارضتهم الشديدة للدعوة الإسلامية واختلاق الأكاذيب عليها!

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾البقرة: ٧٦ .

وقد كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا.. أي آمنا بأنّ محمد مُرسل بحكم ما عندهم في التوراة من البشارة به، وبحكُم أنّهم كانوا ينتظرون بعثته، ويطلبون أن ينصرُهم الله به على من عداهم وهو معنى قوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولكن: «إذ خلا بعضهم إلى بعض عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد (ص) ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم فقال بعضهم لبعض:﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ ﴾.فتكون لهم الحجة عليكم؟ وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله.. وحقيقة علمه، فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجّة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة! ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٨ - ٧٩ .

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستحييوا للحق وأن يستقيموا على الهدى، وأن يتحرجوا من تحريف ما يقف في طريقهم من نصوص كتابهم نفسه؟ إن هؤلاء لا مطمع في أن يؤمنوا للمسلمين وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم. الويل والهلاك لهم مما كتبت أيديهم من تزوير على الله والويل والهلاك لهم ممّا يكسبون بهذا التزوير والاختلاق!

من تلك الأماني التي لا تستقيم مع عدل الله، ولا تتفق مع سنته، ولا تتمشى مع التصوّر الصحيح للعمل والجزاء.. أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا، وأنّ النار لن تمسّهم إلاّ أياماً معدودات يخرجون بعدها إلى النعم.. علام يعتمدون في هذه الأمنية؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات؟ لا شيء إلاّ أماني الأميين الجهال، وأكاذيب المحتالين العلماء! الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة، حين يطول بهم الأمد، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم، فلا يبقى لهم منه إلا اسمه وشكله، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب يحكم ما يعلنونه بألسنتهم في أنهم على دين الله.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠

وهذا هو التلقين الإلهي للحجة الدامغة ﴿ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ﴾ فأين هو هذا العهد؟ ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

وهذا هو الواقع، فالاستفهام هنا للتقرير ولكنه في صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ!

ويتبع الكلام بالجواب القاطع: إن الجزاء من جنس العمل، ووفق هذا العمل.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١

وأما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ الخطيئة كسب، إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة ولكن التعبير يومئ إلى حالة نفسية معروفة.. إن الذي يجترح الخطيئة إنّما يجترحها عادة وهو يلتذّها ويستسيغُها ويحسبها كسباً له، ولو أنها كانت كريهة في حسّه ما

اجترحها، ولو كان يحسّ أنّها خسارة ما أقدم عليها متحمساً، وما تركها تلمأ عليه نفسه، وتحيط بعالمه لأنه خليق لو كرهها وأحسّ ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها، وأن يستغفر منها ويلوذ إلى كنف غير كنفها، وفي هذه الحالة لا تحيط به، ولا تملأ عليه عالمه، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير. وفي التعبير: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ تجسيم لهذا المعنى، وهذه خاصة المعاني الذهنية المُجردة والتغييرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة.

وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليتبّع مثل هذا الظلّ الذي يصوّر المُجترِح الآثم حبيس خطيئته: يعيش في إطارها ويتنفّس في جوّها، ويحيا معها ولها عندئذ... عندما تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة.. عندئذ يحقّ ذلك الجزاء العادل الحاسم: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١ .

ثم يتبع ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثِق من القلب في صورة العمل الصالح.. وهذا ما يجب أن يُدركه من يدّعون الإيمان.. وما أحوجنا (المسلمون) أن نستيقن من هذه الحقيقة: أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح، فأمّا الذين يقولون: إنّهم مسلمون ثم يفسدون في الأرض ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى إقرار منهج الله في الأرض، وشريعته في الحياة وأخلاقه في المجتمع، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء، وليس لهم من ثواب الله شيء وليس لهم من عذابه واقٍ ولو تعلقوا بأماني كأماني اليهود التي بيّن الله لهم وللناس فيها هذا البيان.

*** السيد فضل اللّه:**

معاني المفردات:

﴿ يَشَّقَّقُ ﴾ : أصله يتشقق: وهو أن ينقطع من غير أن يبين.

﴿ بِغَٰفِلٍ ﴾: الغفلة: السهو عن الشيء، وهو ذهاب المعنى عن النفس بعد حضوره، ويقال تغافلت عمداً أي عملت عمل الساهي.

﴿ خَلَا ﴾: انفرد.

﴿ فَتَحَ ﴾: الفتح في الأصل يُستعمل للشيء والمغلق، والمراد به هنا الحكم؛ يقال: اللهم افتح بيني وبين فلان: أي احكم بيني وبينه.

﴿ لِيُحَآجُّوكُم ﴾: ليغلبوكم بالحجة.

﴿ يُسِرُّونَ ﴾: يتحدثون سراً أو يفضون إلى بعضهم البعض سراً.

﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ جمع أُمي، وهو الرجل الذي لا يُحسن الكتابة.

﴿ أَمَانِيَّ ﴾: واحدها أمنية، ومن معانيها تمني القلب، وهو أظهرها وأكثرها استعمالاً، وتستعمل في التلاوة أيضاً.

﴿ فَوَيۡلٌ ﴾: الويل: في اللغة كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصله العذاب والهلاك، ومثله الويح والويس، وقال الأصمعي: هو التقبيح، ومنه: ولكم الويل ممّا تصفون.

﴿ يَكۡسِبُونَ ﴾: أصل الكسب العمل الذي يجلب به نفع أو يدفع به ضرَر، وكل عامل عملاً بمباشرة منه له ومعاناة فهو كاسب له.

﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾ ويتصاعد الأسلوب القرآني في تصوير المدى الذي بلغته القسوة التي تطبع شخصيتهم بطابعها، فلا يجد في الحجارة مثلاً صالحاً لإعطاء الصورة الصارخة، بعد أن بدأ الموضوع من هذا الجانب، لأن التشبيه يفرض أن يكون وجه الشبه في المشبه به أقوى من المشبه، كما نقول: زيد كالأسد، باعتبار أن الشجاعة التي هي وجه الشبه في الأسد أقوى منها في زيد، ممّا يُعطي التشبيه دوراً في إيضاح صورة الشجاعة

في زيد بشكل أقوى.. فإن قلوبهم أقسى من الحجارة «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار فينتشر منها الخصب والجمال في كل مكان»... «وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء» أي الينابيع الصغيرة، التي تسقي من حولها وما حولها... «وإن منها لما يهبط من خشية الله» وهي تعبير عن انفعال هذه الحجارة التي تتساقط بفعل العوامل الطبيعية، بالخضوع التكويني لإرادة الله في إطار العظمة الكونية الخاضعة له، نظير التعبير بالطاعة في السماء والأرض، والسجود والتسبيح في سائر المخلوقات الحية والجامدة... هذه هي قصة الحجارة التي تبدو قاسية في ملامحها، صلبة في تكوينها.

أمّا هؤلاء فإنّ قلوبهم لا تنفتح للرحمة ولا للعطاء، فهم يقتلون الأنبياء بغير حق، ويبخلون بأموالهم وعلومهم وقواهم على المستضعفين، ولا يعيشون الخشوع الروحي الذي تستسلم فيه القلوب والأرواح والعقول لله استسلام الخاشعين.

ولعل هذه المرحلة مرحلة قتل الأنبياء وتكذيبهم واضطهادهم، وتحويل تاريخهم الديني إلى واجهة لاستغلال المستضعفين باسم الدين، وهو ما يحدّثنا القرآن عنه في ما نستقبل من حديث.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ في انحرافكم العملي عن خط الاستقامة، وفي تمردكم على الرسالة والرسول وفي وحشيتكم القاسية في قتل الأنبياء بغير حق.

إننا نستطيع أن نجد في كل أساليب بني إسرائيل وتصرفاتهم من خلال الصورة التي يقدمها القرآن لهم للتأكيد على مسألة أن التاريخ الإسرائيلي الذي قصّة علينا القرآن مُجرد مرحلة من مراحل الماضي، بل يتحوّل إلى صورة حية للإنسان القاسي الموجود في كل زمان ومكان. أمّا سبيلنا إلى استحضار هذه الصورة في وعي الناس، فهو التركيز على طبيعة السلوك الإسرائيلي في المرحلة التي تحدّث عنها القرآن، ودراسة الخصائص الذاتية والعملية

في شخصية أولئك الناس ثم البدء في عملية مقارنة مع النماذج المعاصرة المشابهة لها طبيعتها وخصائصها وتصرفاتها، لتتعمّق الصورة القرآنية من خلال الخطوط العامة، لا من خلال الحالة الخاصة.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾وهذا خطاب للنبي وللمؤمنين معه الذين كانوا يطمعون في إيمان اليهود في المدينة لأنهم أهل كتاب. فقد اطلعوا على ما في التوراة من حقائق العقيدة والشريعة والبشارة بالنبي محمد (ص) ممّا جاء القرآن مصدقاً له، الأمر الذي يجعل الحقيقة الإسلامية واضحة أمامهم بحيث لا مجال فيها لأية شُبهة، بل قد تكون المسألة في الوجدان الإسلامي للمسلمين في علاقتهم باليهود أنهم قد يتحوّلون إلى دُعاة للإسلام من موقع الوعي العقيدي المُرتكز على العلم الذي حصلوا عليه من التوراة، ولكن القرآن يؤكّد للمسلمين أن المشكلة لدى هؤلاء ليست كالمشكلة لدى غيرهم من الكافرين، وهي مسألة جهلهم بالإسلام وبالحقائق الكامنة فيه، ليحتاج النبي (ص) إلى جهد كبير في تعليمهم الكتاب والحكمة والدخول معهم في حوار طويل، بل المشكلة مشكلة عناد مع سبق الإصرار.

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ أي يدركون معانيه وإيحاءاته ودلالاته التي تقودهم إلى معرفة الحق في الدين الجديد والصدق في النبي المُرسل.

﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ ويؤولونه، ويبتعدون به عن ظاهره إلى معنى آخر، لا علاقة له بالحقائق العقيدية الإيمانية.

﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾وعرفوه في عمقه وامتداده بحيث لم تكن هناك شبهة.

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ويجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً. ويقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾آل عمران: ٧٥ فيحلون لأنفسهم نهب أموال العرب الذين يطلقون عليهم اسم الأميين بحجّة أن التوراة تبيح لهم ذلك.

فكيف تطمعون أن يؤمنوا لكم بعد ذلك، لأن الإيمان لا بد من أن يتحرّك من موقع قلق المعرفة الباحثة عن الحق، وإرادة الإيمان المنطلقة في خط الفكر.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ بما جاء به النبي (ص)، لأنّنا نجد صدقه في ما لدينا من التوراة التي بشرت، كما نجد فيها الكثير من تفاصيل الشريعة الإسلامية التي تلتقي مع الكثير من أحكام شريعتنا، ولذلك فإنّنا لا نجد أي مبرّر لإنكار الإسلام.

﴿ وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ وتحادثوا بما قالوه للمسلمين من حقائق الإسلام في حقائق التوراة.

﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

من العلم الذي يُمكن أن يكون حجّة عليكم، إذا انفتح الصراع بينكم وبينهم في ساحاته، كما يكون حجّة لهم عليكم عند ربكم، من خلال إقراركم بأنهم على الحق، على أساس ما تملكونه من حقائق التوراة المصدّقة لما يدعون إليه أو يؤمنون به.

﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ ﴾ إذا لم تلتزموا الدين الذي يلتزمونه، بعد إقراركم به.

﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ وتفكرون بالنتائج السلبية التي تحصل لكم من ذلك كله.

﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ فليست المسألة في قيام الحجة عليهم عند الله أنهم يحدثون المسلمين بما في التوراة، بل المسألة هي المعرفة التي يملكونها، فيتحملون مسؤولياتها تجاه أنفسهم وتجاه الناس الآخرين في الإقرار بالحق، والإيمان به، والدعوة إليه في كل مكان وزمان.

﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ ﴾ لا يملكون المعرفة الواسعة العميقة التي تربطهم بالحقائق التي يحتويها الكتاب، لأنهم يقفون عند المعاني الساذجة للكلمات ولا ينفذون إلى أعماقها.

﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

ربما يراد من كلمة الأماني التلاوة، يقال: تمنى كتاب الله أي قرأه وتلاه، وبذلك يكون المراد بالكلمة أنهم لا يعلمونه إلاّ ألفاظاً يتلونها من دون وعي المعاني، وربما يراد منها الأحاديث المختلفة المتضمّنة للتحريف: يقال: أنت تتمنى هذا القول أي تختلقه، فيكون المقصود أنهم لا يعلمون الكتاب إلاّ بنحو التحريف الذي هو مجموعة من الأكاذيب التي تطرح كما لو كانت مدلولاً للكلمات، وبمعنى أدق فهم لا يملكون اليقين الذي يتحرّك في دائرة وضوح الرؤية الذي تسكن إليه النفس وتطمئن إليه الروح، وذلك من خلال تخرصاتهم وتخميناتهم التي لا ترتكز على أساس المعرفة اليقينية الحقة.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ يحرفونه عن مواضعه، ويختلقون ما ليس منه، ويخلطون في أساليبهم بين الحق والباطل ليوهموا القارئ أنه من الكتاب.

﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ بحيث يعطونه قداسة الوحي الذي يخضع له المؤمنون ويلتزمون به.

﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الباطل الذي صوّروه بصورة الحق.

﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ من الخطايا والأعمال الشريرة، التي لن تجلب لهم إلاّ الويل، في الدنيا والآخرة.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠

وهذه تُمثّل القاعدة النفسية لليهود المرتكزة على الذهنية المُستعلية التي تنظر إلى الناس من الموقع الفوقي، باعتبار أنهم شعب الله المختار، وأنّ الناس يقفون في الدرجات الدنيا ليكونوا خدماً لهم يلبّون حاجاتهم وقضاياهم العامة والخاصة.

وهنا يؤكدون بأنّ الله لن يُخلّدهم في عذاب النار لأنهم أبناؤه وأحباؤه

وشعبه المختار، فلا يعاقبنا إلا كما يعاقب الأب أولاده، والمُحب حبيبه، بطريقة تأديبية حميمية يمتزج فيها الحُب بالعقوبة بشكل خفيف لا يستمر طويلاً، وتلك هي التخيّلات النفسية التي تحوّل الأمنية إلى حقيقة في الواقع. وهنا إشارة إلى أنّه أي «يا محمد» قل لهؤلاء اليهود في حوار جدّي يناقش القضية من منطق الحجة، بأنكم اتخذتم عهداً بأن لا يعذّبكم الله إلاّ أياماً معدودة. لتكون القضية قضية التزام إلهي بالعهد الذي قطعه على نفسه. ولكن أين هو العهد؟ وما مضمونه وما الحجّة فيه؟ ولا نجد لديكم شيئاً من ذلك كله، فتكذبون على الله وتنسبون إليه ما لم ينزل به سلطاناً، وتلك هي الجريمة الكبرى.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١ - ٨٢

يؤكّد القرآن في هاتين الآيتين القاعدة للخلود في الجنة أو في النار، بعيداً عن كل الامتيازات أو الاستثناءات المتوّهمة للأشخاص أو للأمم فليس في الآخرة طبقات على المستوى المعروف لدى الناس في الدنيا، لأن الطبقية هنا تنشأ من حصول الإنسان على امتياز مادي أو معنوي، يتميّز به عن غيره، فيجعل له قيمة متميّزة لدى سائر الناس، أما في الآخرة، فالجميع متساوون أمام الله، فلا علاقة لأحد بالله أكثر من غيره، من ناحية ذاتية، لأنهم مخلوقون له ومن ناحية الصفات، لأنّها هبة من الله، فلا مجال هناك إلاّ للعمل وحده، فهو القيمة الأولى والأخيرة التي ترفع مستوى الإنسان عند الله ولهذا كانت قضية الجنة والنار خاضعة للعمل لجهة خلود الإنسان في الثواب والعقاب، فأمّا الخالدون في النار فهم الذين وقعوا في الخطيئة من قاعدة روحية وفكرية وعملية، فهي محيطة بهم من كل جانب وليست شيئاً طارئاً ممّا يحدث للإنسان، بل إنهم يعتقدونه ثم يعيشونه فكراً وشعوراً وعملاً. إضافة إلى أنهم لا يتطلعون إلى الإيمان بالله بروحية منفتحة تخشع أمام ذكره وتخضع لآياته وتستسلم

لأوامره ونواهيه هذه هي النماذج التي تكسب الخطيئة من موقع القاعدة، هم أصحاب الخلود في النار، وهم الذين تنطبق صفاتهم على هؤلاء اليهود الذين لم يتركوا خطيئة إلاّ ومارسوها بكلّ قوّة وعزم وتصميم من التمرّد على الأنبياء وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتحريف كلام الله والمتاجرة بالأكاذيب والبدع.

أمّا الخالدون في الجنة (أصحاب الجنة) فهم الذين عاشوا الإيمان في نفوسهم فكراً وشعوراً وروحانية، فهم يقفون أمام الله موقف المؤمن الذي يحسّ وجوده بمشاعره، كما يتعقله بِفكره، وهم الذين يعيشون الإحساس بالعبودية المُطلقة التي تدفعهم إلى الخضوع والخشوع والاستسلام لله في أعمالهم، ولكنهم قد يخطئون ويتمرّدون نتيجة نزوة سريعة أو هفوة طارئة ممّا يدخل في حساب الغفلة والنسيان وسوسة الشيطان، من دون أن يكون هناك أساس نفسي أو فكري يشجع على ذلك ويدفع إليه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١ فهؤلاء هم أصحاب الجنّة المتقون الذين عاشوا روحيتها في روحيتهم، وأخلاق أهلها في أخلاقهم في الأرض قبل أن ينتقلوا إليها.

وعليه فإنّ المسألة خاضعة لقاعدة ثابتة في ثواب الله وعقابه، ممّا لا يرجع إلى امتيازات ذاتية لإنسان معين أو شعب معين، فمن كسب سيئة عميقة الجذور في ذاته، بحيث كان لها الدور الكبير في تغيير كل فكره وكان عمله في الاتجاه السلبي، ولعل الشِرك الذي لا يغفره الله هو التجسيد الحي لهذه السيئة التي يكسبها الإنسان فتبعده عن الله في توحيد العقيدة والعبادة ويستغرق في الصنمية التي تحوّل حياته إلى جدار مسدود لا مجال فيه للأفق الواسع، فيكون هذا الإنسان خطيئة متجسّدة في حركة الباطل والشرّ والفساد في واقعه الداخلي والخارجي ما يجعل الخلود في النار هو النهاية الطبيعة التي ينتهون إليها.

وأمّا المؤمنون فكانوا التّجسيد الفكري للحق، والواقع المتحرّك للخير الأمر

الذي يجعلهم في موقع القرب من الله فلا يزدادون إلا خيراً وطاعة ومحبة وانقياد لله فهم أصحاب الجنة.

*** الطبري:**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾البقرة: ٧٤

يعني بذلك كفّار بني إسرائيل، وهم فيما ذكر بنو أخي المقتول، فقال لهم: «ثم قست قلوبكم»: أي جفت وغلظت وعست.

ويعني بقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾، من بعد أن أحيا المقتول لهم الذي اداءوا في قتله، فأخبرهم بقاتله، وبالسبب الذي من أجله قتله، كما قد وصفنا قبل على ما جاءت الآثار والأخبار وفصل الله تعالى ذكره بخبره بين المُحق منهم والمُبطل. وكانت قساوة قلوبهم التي وصفهم الله بها، أنهم فيما بلغنا أنكروا أن يكونوا هم قتلوا القتيل الذي أحياه الله، فأخبر بني إسرائيل بأنهم كانوا قتلته، بعد إخباره إياهم بذلك، وبعد ميتته الثانية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾يعني بقوله: ﴿ فَهِيَ ﴾ «قلوبكم». يقول: ثم صلبت قلوبكم بعد إذ رأيتم الحق فتبينتموه وعرفتموه عن الخضوع له والإذعان لواجب حق الله عليكم، فقلوبكم كالحجارة صلابة ويبساً وغلظاً وشدة، أو أشد قسوة»، يعني: قلوبهم عن الإذعان لواجب حق الله عليهم، والإقرار له باللازم من حقوقه لهم أشد صلابة من الحجارة.

فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله:﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾، و»أو» عند أهل العربية، إنما تأتي في الكلام لمعنى الشك، والله تعالى جل ذكره غير جائز في خبره الشك؟ قيل: إن ذلك على غير الوجه الذي توهمته، من أنه شك من الله جل ذكره فيما أخبر عنه، ولكنه خبر منه عن قلوبهم القاسية،

أنها عند عباده الذين هم أصحابها، الذين كذبوا بالحق بعد ما رأوا العظيم من آيات الله كالحجارة قسوة أوأشد من الحجارة، عندهم وعند من عرف شأنهم.

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ﴾البقرة: ٧٤

يعني بقوله جل ذكره: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ﴾: وإن من الحجارة حجارة يتفجر منها الماء الذي تكون منه الأنهار، فاستغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء. وإنما ذكر فقال «منه»، للفظ «ما». و»التفجر»:»التفعل» من»تفجر الماء»، وذلك إذا تنزل خارجاً من منبعه. وكل سائل شخص خارجا من موضعه ومكانه، فقد»انفجر»، ماء كان ذلك أودماً أوصديداً أوغير ذلك.

﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: وإن منها لما يشقق»، وإن من الحجارة لحجارة يشقق. وتشققها: تصدعها. وإنما هي: لما يتشقق، ولكن التاء أدغمت في الشين فصارت شينا مشدّدة. وقوله: ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ فيكون عيناً نابعة وأنهاراً جارية.

* * *

﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن من الحجارة لما يهبط أي يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته. وقد دلّلنا على معنى «الهبوط» فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وأدخلت هذه «اللامات» اللواتي في «ما»، توكيداً للخبر. وإنما وصف الله تعالى ذكره الحجارة بما وصفها به من أن منها المتفجر منه الأنهار، وأن منها المتشقق بالماء، وأن منها الهابط من خشية الله، بعد الذي جعل منها لقلوب الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل، مثلاً معذرة منه جل ثناؤه لها، دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل إذ كانوا بالصفة التي وصفهم الله بها من

التكذيب لرسله، والجحود لآياته، بعد الذي أراهم من الآيات والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذكره من صحة العقول، ومن به عليهم من سلامة النفوس التي لم يعطها الحجر والمدر، ثم هو مع ذلك منه ما يتفجر بالأنهار، ومنه ما يتشقّق بالماء، ومنه ما يهبط من خشية الله، فأخبر تعالى ذكره أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق.

وبنحوالذي قلنا في تأويل ذلك، قال أهل التأويل.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

يعني بقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾، وما الله بغافل يا معشر المكذبين بآياته، والجاحدين نبوة رسوله محمد (ص)، والمتقوّلين عليه الأباطيل من بني إسرائيل وأحبار اليهود عما تعملون من أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه محصيها عليكم، فمجازيكم بها في الآخرة، أومعاقبكم بها في الدنيا. وأصل»الغفلة» عن الشيء، تركه على وجه السهو عنه، والنسيان له. فأخبرهم تعالى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساه عنها، بل هو لها مُحصٍ، ولها حافظ.

﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾البقرة: ٧٥ .

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ ﴾ يا أصحاب محمد، أي: أفَتَرجون يا معشر المؤمنين بمحمد (ص)، والمُصدقين ما جاءكم به من عند الله، أن يؤمن لكم يهود بني إسرائيل؟

ويعني بقوله: ﴿ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾، أن يصدقوكم بما جاءكم به نبيكم (ص) محمد من عند ربكم، كما:

حُدثت عن عمار بن الحسن، عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع في قوله ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾، يعني أصحاب محمد (ص)، «أن يؤمنوا لكم»

يقول: أفتطمعون أن يؤمن لكم اليهود؟.

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾

أمّا «الفريق» فجمع، كالطائفة، لا واحد له من لفظه. وهو «فعيل» من «التفرق» سمي به الجماع، كما سُميت الجماعة بـ»الحزب»، من «التحزب»، وما أشبه ذلك.

يعني بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، من بني إسرائيل. وإنّما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ومن بعدهم من بني إسرائيل، من اليهود الذين قال الله لأصحاب محمد (ص): ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ لأنهم كانوا آباءَهم وأسلافهم، فجعلهم منهم، إذ كانوا عشائرهم وفَرَطهم وأسلافهم، كما يذكر الرجل اليوم الرجل، وقد مضى على منهاج الذاكر وطريقته. وكان من قومه وعشيرته، فيقول: «كان منا فلان»، يعني أنه كان من أهل طريقته أومذهبه، أومن قومه وعشيرته. فكذلك قوله: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾.

﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٧٥

اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. فقال بعضهم بما:

عن مجاهد في قول الله: فالذين يحرّفونه والذين يكتمونه: هم العلماء منهم.

ثم أنه جل ثناؤه أخبر عن خاص من اليهود، كانوا أعطوا من مباشرتهم سماعَ كلام الله ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك. فلذلك وصفهم بما وصفهم به، للخصوص الذي كان خص به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى ذكره.

ويعني بقوله:﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه. وأصله من»انحراف الشيء عن جهته»، وهو ميله عنها إلى غيرها. فكذلك قوله: ﴿ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾: أي يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه، إلى غيره.

فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا، وأنه بخلاف ما حرفوه إليه. فقال:﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾، يعني: من بعد ما عقلوا تأويله، ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾، أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون. وذلك إخبار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البُهت، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى (ص)، وأن بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) بغياً وحسداً على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى (ع).

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾البقرة: ٧٦ .

أما قوله:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ فإنه خبر من الله جل ذكره عن الذين أيأس أصحاب محمد (ص) من إيمانهم من يهو د بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد (ص) قالوا: آمنا. يعني بذلك: أنهم إذا لقوا الذين صدقوا بالله وبمحمد (ص) وبما جاء به من عند الله، قالوا: آمنا أي صدقنا بمحمد وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك. أخبر الله عز وجل أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجهم.

حدثني محمد بن سعد قال، حدثني أبي قال، حدثني عمي قال، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس قوله:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

، وذلك أن نفراً من اليهود كانوا إذا لقوا محمداً (ص) قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾. فقال بعضهم بما:

يعني بما أمركم الله به، فيقول الآخرون: إنما نستهزئ بهم ونضحك.

وقال آخرون بما:

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن اسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أوعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾، أي: بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله:﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾البقرة: ٧٦ .، أي: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا؟ اجحدوه ولا تقروا لهم به. يقول الله: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وقال آخرون في ذلك بما:

حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله إلا أنه قال: هذا، حين أرسل إليهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وآذوا النبي (ص) فقال:»اخسئوا يا إخوة القردة والخنازير» .

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، خبر من الله تعالى ذكره عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله (ص) بما فتح الله لهم عليهم أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي (ص) بما في كتبكم أنه نبي مبعوث، حجة لهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟ أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك. فقال جل ثناؤه:﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾البقرة: ٧٧

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أولا يعلم هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملّتهم، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول الله (ص) ومبعثه، القائلون لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أن الله عالم بما يسرون، فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم، وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول الله وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد (ص)، وعلى قيلهم لهم: آمنا، ونهي بعضهم بعضاً أن يخبروا المؤمنين بما فتح الله للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقة نبوّة محمد (ص) ونعته ومبعثه وما يعلنون، فيظهرونه لمحمد (ص) ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم، من قيلهم لهم: آمنا بمحمد (ص) وبما جاء به، نفاقاً وخداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين؟

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ البقرة: ٧٨ .

عني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، ومن هؤلاء اليهود الذين قصّ الله قصصهم في هذه الآيات، وأيأس أصحاب رسول الله (ص) من إيمانهم فقال لهم: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وهم إذا لقوكم قالوا: آمنا.

يعني بـ«الأميين»، الذين لا يكتبون ولا يقرأون. ومنه قول النبي (ص): «إنا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب» يقال منه: «رجل أمي بين الأمية».

وأرى أنه قيل للأمي «أمي»؛ نسبة له بأنه لا يكتب إلى «أمه»، لأن الكتاب كان في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة، دون أبيه، كما ذكرنا عن النبي (ص) من قوله: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، وكما قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الجمعة: ٢ .

فإذا كان معنى «الأمي» في كلام العرب ما وصفنا، فالذي هو أولى بتأويل الآية

ما قاله النخعي، من أن معنى قوله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾: ومنهم من لا يحسن أن يكتب.

﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾

يعني بقوله: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، كهيئة البهائم، كالذي:

حدثني الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله، ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾: إنّما هم أمثال البهائم، لا يعلمون شيئاً.

وإنما عني بـ «الكتاب»: التوراة، ولذلك أدخلت فيه «الألف واللام» لأنه قصد به كتاب معروف بعينه.

ومعناه: ومنهم فريق لا يكتبون، ولا يدرون ما في الكتاب الذي عرفتموه الذي هو عندهم وهم ينتحلونه ويدعون الإقرار به من أحكام الله وفرائضه، وما فيه من حدوده التي بينها فيه إلا أماني.

وأولى ما روينا في تأويل قوله: ﴿ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾، بالحق، وأشبهه بالصواب، الذي قاله ابن عباس الذي رواه عنه الضحاك وقول مجاهد: إن «الأميين» الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآية، أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئا، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقولون الأباطيل كذبا وزوراً. و«التمني» في هذا الموضع، هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله. يقال منه: «تمنيت كذا»، إذا افتعلته وتخرصته. ومنه الخبر الذي روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت»، يعني بقوله: «ما تمنيت»، ما تخرصت الباطل، ولا اختلقت الكذب والإفك.

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، وما هم، كما قال جل ثناؤه:

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾إبراهيم: ١١ ، يعني بذلك: ما نحن إلا بشر مثلكم. ومعنى قوله: ﴿ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، : إلا يشكون، ولا يعلمون حقيقته وصحته. و»الظن» في هذا الموضع الشك. فمعنى الآية: ومنهم من لا يكتب ولا يخط ولا يعلم كتاب الله ولا يدري ما فيه، إلا تخرصاً وتقولاً على الله الباطل، ظناً منه أنه مُحق في تخرصه وتقوله الباطل. وإنّما وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم في تخرصهم على ظن أنهم محقون وهم مبطلون، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أموراً حسبوها من كتاب الله، ولم تكن من كتاب الله، فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند الله ممّا جاء به محمد (ص)، ويتبعون ما هم فيه شاكون، وفي حقيقته مرتأبو ن، ممّا أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارهم عناداً منهم لله ولرسوله، ومخالفة منهم لأمر الله، واغتراراً منهم بإمهال الله إياهم. وبنحوما قلنا في تأويل قوله: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، ، قال فيه المتأولون من السلف.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩
اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ فَوَيْلٌ ﴾. فقال بعضهم بما كما:

عن ابن عباس(فويل)، يقول: فالعذاب عليهم.

وقال آخرون بما: قال: سمعت أبا عياض يقول: الويل: ما يسيل من صديد في أصل جهنم.

وقال آخرون بما:

حدثنا به المثنى، قال: حدثنا إبراهيم عن عبد السلام بن صالح التستري، قال: حدّثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة بن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان عن رسول الله (ص): قال: «الوَيْلُ جَبَلٌ فِي النّارِ».

فمعنى الآية على ما روي عمن ذكرت قوله في تأويل ﴿وَيْلٌ﴾: فالعذاب الذي هو شرب صديد أهل جهنم في أسفل الجحيم لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله.

﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾البقرة: ٧٩يعني بذلك الذين حرفوا كتاب الله من يهو د بني إسرائيل، وكتبوا كتابا على ما تأولوه من تأويلاتهم، مخالفا لما أنزل الله على نبيه موسى (ص)، ثم باعوه من قوم لا علم لهم بها، ولا بما في التوراة، جهال بما في كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩، كما حدثني موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾البقرة: ٧٩ قال: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنا قليلاً.

إن قال لنا قائل: ما وجه قوله:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾؟ وهل تكون الكتابة بغير اليد، حتى احتاج المخاطبون بهذه المخاطبة، إلى أن يخبروا عن هؤلاء القوم الذين قص الله قصتهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم؟

قيل له: إن الكتاب من بني آدم، وإن كان منهم باليد، فإنه قد يضاف الكتاب إلى غير كاتبه وغير المتولي رسم خطه فيقال: كتب فلان إلى فلان بكذا»، وإن كان المتولي كتابته بيده، غير المضاف إليه الكتاب، إذا كان الكاتب كتبه بأمر المضاف إليه الكتاب. فأعلم ربنا بقوله:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾٧٩ عباده المؤمنين، أن أحبار اليهود تلي كتابة الكذب والفرية على الله بأيديهم، على علمٍ منهم وعمدٍ للكذب على الله، ثم تنحلّه إلى أنه

من عند الله وفي كتاب الله، تَكَذُّبا على الله وافتراء عليه. فنفى جل ثناؤه بقوله: ﴿ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾، أن يكون ولي كتابة ذلك بعض جهالهم بأمر علمائهم وأحبارهم. وذلك نظير قول القائل: «باعني فلان عينُه كذا وكذا، فاشترى فلان نفسه كذا»، يراد بإدخال «النفس والعين» في ذلك، نفي اللبس عن سامعه، أن يكون المتولي بيع ذلك أو شراءه، غير الموصوف له أمره، عنه، فكذلك قوله: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾

﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩ يعني جل ثناؤه بقوله:﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾، أي فالعذاب في الوادي السائل من صديد أهل النار في أسفل جهنم لهم، يعني: للذين يكتبون الكتاب، الذي وصفنا أمره، من يهو د بني إسرائيل محرّفاً، ثم قالوا: هذا من عند الله، ابتغاء عرض من الدنيا به قليل ممّن يبتاعه منهم. وقوله: ﴿ مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾، يقول: من الذي كتبت أيديهم من ذلك، وويل لهم أيضاً ﴿ مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾، يعني: مما يعملون من الخطايا، ويجترحون من الآثام، ويكسبون من الحرام، بكتابهم الذي يكتبونه بأيديهم، بخلاف ما أنزل الله، ثم يأكلون ثمنه، وقد باعوه ممّن باعوه منهم على أنه من كتاب الله.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠

يعني بقوله: ﴿ وَقَالُواْ ﴾، اليهود، يقول: وقالت اليهود: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾، يعني لن تلاقي أجسامنا النار ولن ندخلها، ﴿ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ ﴾. وإنّما قيل «معدودة» وإن لم يكن مبيناً عددها في التنزيل، لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام، التي يوقتونها لمكثهم في النار. فلذلك ترك ذكر تسمية عدد تلك الأيام، وسماها»معدودة» لما وصفنا.

ثم اختلف أهل التأويل في مبلغ الأيام المعدودة التي عينها اليهود،

القائلون ما أخبر الله عنهم من ذلك. فقال بعضهم بما:

عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، قال ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تَحِلّة القسم الأيام التي أصبنا فيها العجل أربعين يوماً، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب والقسم.

وقال آخرون في ذلك بما: حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير قال، حدثنا ابن إسحاق قال، حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقولون: إنما مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنّما يعذب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا من أيام الآخرة، وإنها سبعة أيام. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾الآية.

﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠

لما قالت اليهود ما قالت من قولها: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾على ما قد بينا من تأويل ذلك قال الله لنبيه محمد (ص): قل يا محمد، لمعشر اليهود: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾: أأخذتم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقاً، فالله لا ينقض ميثاقه، ولا يبدل وعده وعقده، أم تقولون على الله الباطل جهلاً وجراءة عليه؟

في تأويل قوله: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾. لأن ممّا أعطاه الله عباده من ميثاقه: أن من آمن به وأطاع أمره، نجاه من ناره يوم القيامة. ومن الإيمان به، الإقرار بأن لا إله إلا الله. وكذلك من ميثاقه الذي واثقهم به: أن من أتى الله يوم القيامة بحجة تكون له نجاة من النار، فينجيه منها.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١

وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾

تكذيب من الله القائلين من اليهود: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾وإخبار منه لهم أنه معذب من أشرك ومن كفر به وبرسله، وأحاطت به ذنوبه، فمخلده في النار، فإن الجنة لا يسكنها إلاّ أهل الإيمان به وبرسوله، وأهل الطاعة له، والقائمون بحدوده. كما: عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس:﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ أي: من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١ .

وأما ﴿ بَلَىٰ ﴾، فإنها إقرار في كل كلام في أوله جحد، كما «نعم» إقرار في الاستفهام الذي لا جحد فيه. وأصلها «بل» التي هي رجوع عن الجحد المحض في قولك: «ما قام عمروبل زيد». فزيد فيها «الياء» ليصلح عليها الوقوف، إذ كانت «بل» لا يصلح عليها الوقوف، إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد. ولتكون أعني «بلى» رجوعاً عن الجحد فقط، وإقرارا بالفعل الذي بعد الجحد، فدلت «الياء» منها على معنى الإقرار والإنعام. ودل لفظ «بل» عن الرجوع عن الجحد.

قال: وأما «السيئة» التي ذكر الله في هذا المكان، فإنّها الشرك بالله.

وإنّما قلنا إن «السيئة» التي ذكر الله جل ثناؤه أن من كسبها وأحاطت به خطيئته، فهو من أهل النار المخلدين فيها في هذا الموضع، إنّما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض، وإن كان ظاهرها في التلاوة عاماً، لأن الله قضى على أهلها بالخلود في النار. والخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به، لتظاهر الأخبار عن رسول الله (ص) بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان. فإن الله جل ثناؤه قد قرن بقوله:﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١

قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا

﴿خَٰلِدُونَ﴾ البقرة: ٨٢ . فكان معلوما بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان.

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، اجتمعت عليه فمات عليها، قبل الإنابة والتوبة منها. وأصل «الإحاطة بالشيء»، الإحداق به، بمنزلة «الحائط» الذي تحاط به الدار فتحدق به. ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ الكهف: ٢٩ .

فتأويل الآية إذًا: من أشرك بالله، واقترف ذنوباً جمّة فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبداً. وبنحوالذي قلنا في تأويل ذلك قال المتأولون.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

البقرة: ٧٢

ويعني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي صدقوا بما جاء به محمد (ص). ويعني بقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه. ويعني بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فالذين هم كذلك ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يعني أهلها الذين هم أهلها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، مقيمون أبداً. وإنما هذه الآية والتي قبلها إخبار من الله عباده عن بقاء النار وبقاء أهلها فيها، ودوام ما أعد في كل واحدة منهما لأهلها، تكذيباً من الله جل ثناؤه القائلين من يهود بني إسرائيل: إن النار لن تمسّهم إلاّ أياماً معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة. فأخبرهم بخلود كفارهم في النار، وخلود مؤمنيهم في الجنة.

***الطبرسي:**

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا

يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤

المعنى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ أي غلُظت ويبُست، وعتت وقست ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: من بعد آيات الله كلها التي أظهرها على يد موسى (ع) وقيل: إنه أراد بني أخي المقتول حين أنكروا قتله بعد أن سمعوه منه عند إحياء الله إياه، أنه قتله فلان...

وقوله: ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ البقرة: ٧٤

شبه قلوبهم بالحجارة في الصلابة واليبس، والغلظ والشدة. وقد ورد الخبر عن النبي (ص)، أنه قال: ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب وإنَّ أبعد الناس من الله القاسي القلب)). ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: أو هي أشد قسوة. ويجوز أن يكون عطفاً على موضع الكاف، وكأنه قال: فهي مثل الحجارة، أو أشد قسوة أي: أشد صلابة، لامتناعهم عن الإقرار اللازم بقيام حجته، والعمل بالواجب من طاعته، بعد مشاهدة الآيات.

وقيل: في تأويل ﴿أَوْ﴾ ههنا وجوه أحدها: ما ذكره الزجاج أن معناها الإباحة كقولهم: جالس الحسن، أو ابن سيرين. فإن جالست أحدهما أو جمعت بينهما، فأنت مصيب. فيكون معنى الآية على هذا: إن قلوبهم قاسية، فإن شبّهت قسوتها بالحجر أصبتَ، وإن شبهتها بما هو أشد أصبت، وإن شبهتها بهما جميعاً أصبت، كما مرّ نحو هذا في قوله سبحانه: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

وثانيها: أن يكون ﴿أَوْ﴾ دخلت للتفصيل والتمييز، فيكون معنى الآية: إنَّ قلوبهم قاسية فبعضها كالحجارة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد يحتمل قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هذا الوجه أيضاً. وثالثها: أن يكون ﴿أَوْ﴾ دخلت على سبيل الإبهام فيما يرجع إلى المخاطب وإنْ كان تعالى عالماً بذلك غير شاك فيه، فأخبر أن قسوة قلوب هؤلاء كالحجارة، أو أشد قسوة. والمعنى إنها كأحد هذين، لا يخرج عنهما، كما يقال: أكلت بسرة أو تمرة، وهو يعلم

ما أكله على التفصيل، إلاَّ أنه أبهم على المخاطب، وكما قال لبيد:

تَمَنَّى ابْنَتَاي أنْ يعيش أَبُوهُما، وهَلْ أنَا إلاَّ مِنْ رَبيعَةَ، أو مُضَر

أراد: وهل أنا إلاَّ من أحد هذين الجنسين، فسبيلي أنْ أفنى كما فنيا. وإنما حسن ذلك لأن غرضه الذي نحاه، هو أن يخبر بكونه ممن يموت ويفنى، ولم يخلّ بقصده الذي أجرى إليه إجمال ما أجمل من كلامه. فكذلك هنا الغرض الإخبار عن شدة قسوة قلوبهم، وإنها مما لا يصغي إلى وعظ، ولا يعرج على خير، فسواءٌ كانت كالحجارة، أو أشد منها، في أنه لا يحتاج إلى ذكر تفصيله ورابعها: أن يكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى بل قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾الصافات: ١٤٧ ، ومعناه: بل يزيدون. وروي عن ابن عباس أنه قال: كانوا مائة ألف وبضعاً وأربعين ألف، وأنشد الفراء:

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحى،

بصُورَتِها، أو أَنْتَ في العَينُ أملح

كما تكون أم المنقطعة في الإستفهام بمعنى بل، يقول القائل: أضربت عبد الله أم أنت متعنت أي: بل أنت، وقال الشاعر:

فوَالله ما أدْري، أسلمى تَغَوّلت، أم النَّومُ، أمْ كُلٌّ إليّ حبيبُ

معناه: بل كان. وقد طعن على هذا الجواب، فقيل: كيف يجوز أن يخطابنا الله عز اسمه بلفظة بل وهي تقتضي الاستدراك والنقض للكلام الماضي، والإضراب عنه؟: وهذا غير سديد لأن الاستدراك إنْ أُريد به الاستفادة أو التذكر لما لم يكن معلوماً، فلا يصح، وإنْ أُريد به الأخذ في الكلام الماضي، واستئناف زيادة عليه فهو صحيح. فالقائل إذا قال: أعطيته ألفاً بل ألفين، لم ينقض الأول، وكيف بنقضه والأول داخل في الثاني، وإنما زاد عليه، وإنما يكون ناقضاً للثاني لو قال لقيت رجلاً بل حماراً، لأن الأول لا يدخل في الثاني على وجه. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ غير ناقض للأول، لأنها لا تزيد على الحجارة، إلاَّ بأن يساويها. وإنما تزيد عليها بعد المساواة. وخامسها: أن يكون بمعنى الواو

كقوله تعالى: ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ معناه: وبيوت آبائكم، قال جرير:

أَثَعْلَبَة الفوَارِسَ، أوْ رِيَاحاً، عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ، والْخِشَابَا

أراد ورياحاً. وقال أيضاً:

نَسْلُ الخِلافة، أوْ كانَت لهُ قَدراً، كَما أتَى رَبَّهُ مُوْسَى على قدر

وقال توبة بن الحمير:

وقَدْ زَعَمَتْ لَيْلى بِأنِّي فاجِرٌ لِنَفْسي تُقاها، أوْ علَيْها فُجُورها

فإن قيل: كيف يكون ﴿أَوْ﴾ في الآية بمعنى الواو، والواو للجمع، والشيء إذا كان على صفة لم يجز أن يكون على خلافها؟ أُجيب عنه بأنه ليس يمتنع أن تكون قلوبهم كالحجارة في حالة، وأشد من الحجارة في حالة أخرى، فيصح المعنى، ولا يتنافى وفائدة هذا الجواب أن قلوب هؤلاء مع قساوتها، ربما لانت بعض اللين، وكادت تصغي إلى الحق، فتكون في هذا الحال كالحجارة التي ربما لانت، وتكون في حال أخرى في نهاية البعد عن الخير، فتكون أشد من الحجارة.

وجواب آخر وهو: إنَّ قلوبهم لا تكون أشد من الحجارة إلاَّ بعد أن يكون فيها الحجارة، لأن قولنا: فلان أعلم من فلان، إخبار بأنه زائد عليه في العلم الذي اشتركا فيه، فلا بد من الاشتراك، ثم الزيادة. فلا تنافي ههنا. ثم فضّل سبحانه الحجارة على القلب القاسي فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ﴾

البقرة: ٧٤

معناه: إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم القاسية، فيتفجر منه أنهار الماء استغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء. وقيل: المراد منه الحجر الذي كان ينفجر منه اثنتا عشرة عيناً. وقيل: هو عام.

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ يعني ومن الحجارة ما يخرج منه الماء فيكون عيناً نابعة، لا أنهاراً جارية، حتى يكون مخالفاً للأول. وقال الحسين بن علي المغربي: الحجارة الأولى حجارة الجبال منها تتفجر الأنهار. والثانية

حجر موسى (ع)، الذي كان يضربه فيخرج منه العيون، فلا يكون تكراراً. وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ الضمير في ﴿ مِنْهَا ﴾ يرجع إلى الحجارة، أي ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، وعليه أكثر أهل التفسير. وقيل: يرجع من القلوب أي: ومن القلوب ما يهبط من خشية الله أي: تخشع، وهي قلوب من أمن أهل الكتاب، فيكونون مستثنين من القاسية قلوبهم، عن أبي مسلم.

ومن قال: إنَّ الضمير يرجع إلى الحجارة فإنهم اختلفوا في تأويله على وجوه أحدها ما روي عن مجاهد، وابن جريج أنّ كل حجر تردّى من رأس جبل، فهو من خشية الله، فمعناه: إنْ الحجارة قد تصير إلى الحال التي ذكرها من خشية الله، وقلوب اليهود لا تخشى ولا تخشع ولا تلين، لأنهم عارفون بصدق محمد(ص)، ثم لا يؤمنون به فقلوبهم أقسى من الحجارة. وثانيها: ما قاله الزجاج: إنّ الله تعالى أعطى بعض الجبال المعرفة، فعقل طاعة الله نحو الجبل الذي تجلى الله، عز وجل، له، حين كلم موسى، فصار دكاً. وكما روي عن النبي (ص)، أنه قال: ((إنَّ حجراً كان يسلّم عليّ في الجاهلية، وإني لأعرفه الآن)). وهذا الوجه ضعيف، لأن الجبل إذا كان جماداً فمحال أن يكون فيه معرفة الله، وإنْ كان بنيته بنية الحي، فإنه لا يكون جبلاً. وأما الخبر فإنْ صحّ، فإن معناه أنه سبحانه أحياه، فسلم على النبي (ص)، ثم أعاده حجراً، ويكون معجزاً له (ص). وثالثها: إنه يدعو المتفكر فيه إلى خشية الله، أو يوجب الخشية له، بدلالته على صانعه، لما يرى فيه من الدلالات والعجائب. وأضاف الخشية إليه، لأن التفكر فيه هو الداعي إلى الخشية، كما قال جرير بن عطية:

وأَعْوَرُ مِنْ نبْهان أمَّا نَهارُهُ فأَعْمَى، وأمَّا ليلُهُ فبَصِيرُ

فجعل الصفة لليل والنهار، وهو يريد صاحبه النبهاني الذي يهجوه بذلك من أجل أنه كان فيهما على ما وصفه به. ورابعها: إنه إنما ذكر ذلك على سبيل ضرب المثل، أي: كأنه يخشى الله سبحانه في المثل، لانقياده لأمره، ووجد منه ما لو وجد من حي عاقل، لكان دليلاً على خشية كقوله سبحانه: ﴿ فَوَجَدَا

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾الكهف: ٧٧ أي: كأنه يريد، لأنه ظهر فيه من الميل ما لو ظهر من حي لدل على إرادته الانقضاض، ومثله قوله: ﴿ فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ الإسراء: ٤٤

وكما قال زيد الخيل:

بِجَمْعٍ تضُلُّ البُلْقُ في حجَراتِه، تَرَى الأُكْمَ فيها سجَّداً لِلْحوافِرِ

فجعل ما ظهر في الأكم من آثار الحوافر، وقلة مدافعتها لها، كما يدافع الحجر الصلد، سجوداً لها. ولو كانت الأكم في صلابة الحديد حتى تمتنع على الحوافر، لم يقل إنها تسجد للحوافر. قال جرير:

لمَّا أَتَى خَبَر الزُّبَيرِ تَواضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ، والجِبالُ الخشَّعُ

أي: كأنها كذلك. وقال جرير أيضاً:

والشَّمسُ طالِعةٌ ليْسَتْ بكاسِفَة تبْكي علَيْكَ نُجُومَ اللّيلِ، والقَمَرا

وكما قال سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾الحشر: ٢١ أي: لو كانت الجبال مما يخشع لشيء ما، لرأيته خاشعاً. ويؤيد هذا الوجه قوله سبحانه: ﴿ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ الحشر: ٢١

وخامسها: إن هبط يجوز أن يكون متعدياً قال الشاعر:

ما راعنِي إلاَّ جناحٌ هابِطاً على البُيُوتِ قوْطَهُ العُلا بِطا

فأعمله بالقوط كما ترى، ويكون على هبطت الشيء فهبط، فمعناه: يهبط غيره من خشية الله أي: إذا رآه الإنسان خشع لطاعة خالقه، إلاَّ أنه حذف المفعول تخففاً، ولدلالة الكلام عليه، ونسب الفعل إلى الحجر، لأنّ طاعة رائيه لخالقه سبباً النظر إليه أي: منها ما يهبط الناظر إليه أي: يخضعه، ويخشعه. وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أيها المكذبون بآياته، الجاحدون نبوة نبيه محمد (ص) ذكرناه قبل.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ البقرة: ٧٥ .

المعنى: هذا خطاب لأمة نبينا محمد (ص)، يقول: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ من طريق النظر والاعتبار والانقياد للحق بالاختيار، ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: ممن هو في مثل حالهم من أسلافهم ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ويعلمون أنه حق، ويعاندون فيحرّفونه ويتأوّلونه على غير تأويله. وقيل: إنهم علماء اليهود الذي يحرفون التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً اتباعاً لأهوائهم. وإغاثة لمن يرشوهم. عن مجاهد والسدي وقيل: إنهم السبعون رجلاً الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله، فلم يمتثلوا أمره، وحرّفوا القول في أخبارهم لقومهم حين رجعوا إليهم، عن ابن عباس، والربيع. فيكون على هذا كلام الله معناه: كلام الله لموسى وقت المناجاة. وقيل: المراد بكلام الله: صفة محمد (ص) في التوراة.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ قيل فيه وجهان: أحدهما: أن يكون معناه: إنهم غيروه من بعد ما فهموه، فأنكروه عناداً ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم يحرفونه أي: يغيرونه والثاني: إنَّ معناه من بعد ما تحققوه، وهم يعلمون ما عليهم في تحريفه من العقاب. والأول أليق بمذهبنا في الموافاة. وإنما أراد الله سبحانه بالآية، أن هؤلاء اليهود الذين كانوا على عهد النبي (ص)، إن لم يؤمنوا به، وكذبوه، وجحدوا نبوته، فلهم بآبائهم وأسلافهم الذين كانوا في زمان موسى (ع) أسوة، إذا جروا على طريقتهم في الجحد والعناد، وهؤلاء الذين عاندوا وحرفوا، كانوا معدودين، يجوز على مثلهم التواطؤ والاتفاق في كتمان الحق، وإنْ كان يمتنع ذلك على الجمع الكثير، والجمّ الغفير، لأمر يرجع إلى اختلاف الدواعي، ويبطل قول من قال: إنهم كانوا كلهم عارفين معاندين، لأن الله سبحانه، إنما نسب فريقاً منهم إلى المعاندة، وأنْ كانوا بأجمعهم كافرين. وفي هذه الآية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع، وهو عام في إظهار البدع في الفتاوى، والقضايا، وجميع أمور الدين.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾البقرة: ٧٦ .

المعنى: ثم ذكر الله سبحانه خصلة أخرى من خصالهم الذميمة، فقال: ﴿ و﴾ هم الذين ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: رأوهم ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ أي: صدقنا بمحمد أنه نبي صادق نجده في كتابنا بنعته وصفته، وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك. أخبر الله تعالى عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، وتحلوا بحليتهم، واستنّوا بسنتهم. ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: إذا خلا بعض هؤلاء اليهود، الذين وصفهم الله، إلى بعض منهم، فصاروا في خلاء: وهو الموضع الذي ليس فيه غيرهم ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني: قال بعضهم لبعض ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾. قال الكلبي: بما قضى الله عليكم في كتابكم أن محمداً حق، وقوله صدق. وروى سعد بن جبير، عن ابن عباس أنّ معناه قالوا لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم أي: لا تقروا بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وأنه النبي الذي كنا ننتظره، ونجده في كتابنا، إجحدوه، ولا تقروا لهم به. وقال الكسائي: أتحدثونهم بما بينه الله لكم في النزول. وأقوى التأويلات قول من قال: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم أي: حكم الله به عليكم، وقضاه فيكم، ومن حكمه عليكم، ما أخذ به ميثاقكم من الإيمان بمحمد (ص)، وصفته الموصوفة لكم في التوراة، ومن قضائه فيكم أنه جعل منكم القردة والخنازير.

وقوله: ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾أي: ليكون لهم الحجة عليكم عند الله في الدنيا والآخرة في إيمانهم بالنبي (ص)، إذ كنتم مقرين به، ومخبرين بصحة أمره من كتابكم، فهذا يبين حجتهم عليكم عند الله. وقيل: معناه ليجادلوكم ويقولوا لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم، ثم لا تتبعونه. وقوله: ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ قال ابن الأنباري: معناه في حكم ربكم، كما يقال: هذا حلال عند الشافعي أي: في حكمه، وهذا يحل عند الله أي: في حكمه. وقوله:

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تفقهون أيها القوم أنّ إخباركم محمداً وأصحابه بما تخبرونهم به من وجوه نعت محمد في كتبكم، حجة عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم. وقيل: معناه أفلا تعقلون أيها المؤمنون، أنهم لا يؤمنون، فلا تطمعوا في ذلك، عن الحسن. وقيل: إنه خطاب لليهود أي: فلا تعقلون أيها اليهود إذ تقبلون من رؤسائكم مثل هذا؟ وهذا تحذير لهم عن الجوع إلى قول رؤسائهم.

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ البقرة: ٧٧

المعنى: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني اليهود، أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، فكيف يستجيزون أنْ يسروا إلى إخوانهم النهي عن التحدث بما هو الحق، وهم مقرون بذلك غير جاحدين بأن الله يعلم سرهم وجهرهم، كالكفار والمنافقين، فهم من هذه الجهة ألوم، والمذمة لهم ألزم، عن أكثر المفسرين. وقيل: معناه أو لا يعلمون ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من كفرهم وتكذيبهم محمداً، إذا خلا بعضهم إلى بعض، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من قولهم: آمنا، إذا لقوا أصحاب محمد، ليرضوهم بذلك، عن قتادة وأبي العالية.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ البقرة: ٧٨ .

المعنى: ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ يعني ومن هؤلاء اليهود الذين قصّ الله قصصهم في هذه الآيات، وقطع الطمع عن إيمانهم ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ أي: غير عالمين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وتلاوة، لا رعاية ودراية، وفهماً لما فيه، عن ابن عباس، وقتادة. وقال أبو عبيدة: الأميون هم الأمم الذين لم ينزل عليهم كتاب. والنبي الأمي: الذي لا يكتب، وأنشد لتُبع:

لهُ أُمَّةٌ سُمِّيَتْ في الزَّبُو ... رِ أُمِّيَّةً هيَ خَيرُ الأمَمْ

وقوله: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

أي: لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزل الله، عزَّ وجلَّ، ولا يدرون ما أودعه الله إياه من الحدود والأحكام والفرائض، فهم كهيئة البهائم مُقلّدة لا يعرفون ما يقولون. والكتاب المعني به: التوراة. أدخل عليه لام التعريف. ((إلاَّ)) بمعنى لكن. ((أماني)) أي: قولاً يقولونه بأفواههم كذباً، عن ابن عباس. وقيل: أحاديث يحدثهم بها علماؤهم، عن الكلبي. وقيل: تلاوة يتلونها، ولا يدرونها، عن الكسائي والفراء. وقيل: أماني يتمنون على الله الرحمة، ويخطر الشيطان ببالهم أن لهم عند الله خيراً. ويتمنون ذهاب الإسلام بموت الرسول (ص)، وعود الرياسة إليهم. وقيل: أماني يتخرصون الكذب، ويقولون الباطل. والتمني في هذا الموضع: هو تخلّق الكذب وتخرّصه. ويقوّي ذلك قوله: ﴿ **وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ فبيّن أنهم يختلقون ما يختلقون من الكذب، ظناً لا يقيناً.

ولو كان المعنى أنهم يتلونه لما كانوا ظانين. وكذلك لو كانوا يتمنونه، لأن الذي يتلوه إذا تدبّره علِمه. ولا يقال للمتمني في حال وجود تمنيه: إنه يظن تمنيه، ولا أنه شاك فيما هو عالم به. واليهود الذين عاصروا النبي، لم يشكوا في أنّ التوراة من عند الله. وقوله: ﴿ **وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ معناه: إنهم يشكون.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ التقليد في معاني الكتاب، وفيما طريقه العلم، غير جائز وأنّ الاقتصار على الظن في أبواب الديانات لا يجوز، وأن الحجة بالكتاب قائمة على جميع الخلق، وإنْ لم يكونوا عالمين إذا تمكنوا من العلم به، وأنْ من الواجب أنْ يكون التعويل على معرفة معاني الكتاب، لا على مجرد تلاوته.

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾البقرة: ٧٩ .

المعنى: ثم عاد سبحانه إلى ذكر علماء اليهود، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ : قال ابن عباس: الويل في الآية: العذاب. وقيل:

جبل في النار. وروى الخدري عن النبي، (ص)، أنه واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أنْ يبلغ قعره. والأصل فيه ما ذكرناه من أنه كلمة التحسر والتفجع والتلهف والتوجع، يقولها كل مكروب هالك. وفي التنزيل. ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الكهف: ٤٩ .

وقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

معناه: يتولون كتابته، ثم يضيفونه إلى الله سبحانه، كقوله سبحانه: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ ﴾يس: ٧١ . أي: نحن تولينا ذلك لم نكله إلى أحد من عبادنا، ومثله: ﴿ خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ص: ٧٥ . ويقال: رأيته بعيني، وسمعته بأذني، ولقيته بنفسي، والمعنى في جميع ذلك، التأكيد. أيضاً فقد يضيف الإنسان الكتاب إلى نفسه، وقد أمر غيره بالكتابة عنه، فيقول: أنا كتبت إلى فلان، وهذا كتابي إلى فلان. وكقوله سبحانه: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾، وإنما أمر به فأعلمنا الله سبحانه أنهم يكتبونه بأيديهم، ويقولون: هو من عند الله، وقد علموا يقيناً أنه ليس من عنده. وقيل: معناه أنهم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم كالرجل إذا اخترع مذهباً أو قولاً لم يسبق إليه، يقال له: هذا مذهبك، وهذا قولك، وإنْ كان جميع ما يؤخذ عنه من الأقوال قوله، والمراد: إن هذا من تلقاء نفسك، وإنك لم تسبق إليه.

وقيل: كتابتهم بأيديهم أنهم عمدوا إلى التوراة وحرفوا صفة النبي (ص)، ليوقعوا الشك بذلك للمستضعفين من اليهود، وهو المروي، عن أبي جعفر الباقر (ع)، وعن جماعة من أهل التفسير. وقيل: كانت صفته في التوراة أنه أسمر، ربعة، فجعلوه آدم طويلاً. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: إنّ أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي (ص) مكتوبة في التوراة: أكْحَل، أعَيْن، رَبْعة، حسَن الوجه، فمحوه من التوراة حسداً وبغياً، فأتاهم نفر من قريش، فقالوا: أتجدون في التوراة نبياً منا؟ قالوا: نعم، نجده طويلاً أزرق، سبْط الشعر، ذكره الواحدي بإسناده في الوسيط.

وقيل: المراد بالآية كات كان يكتب للنبي، فيغير ما يملي عليه، ثم ارتد ومات فلفظته الأرض. والأول أوجه، لأنه أليق بنسق الكلام. وقوله: ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ ﴾. يريد: ليأخذوا به ما كانوا يأخذونه من عوامهم من الأموال. وإنما ذكر لفظ الاشتراء توسعاً، والمراد أنهم تركوا الحق، وأظهروا الباطل، ليأخذوا على ذلك شيئاً، كمن يشتري السلعة بما يعطيه، والفائدة في قوله ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ ﴾. إنَّ كل ثمن له لا يكون إلاَّ قليلاً، وللعرب في ذلك طريقة معروفة يعرفها من تصفّح كلامهم. وقيل: إنما وصفه بالقلة لأنه عرض الدنيا، وهو قليل المدة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[آل عمران/٧٧]، عن أبي العالية. وقيل: إنما قال: ﴿ قَلِيلًاۖ ﴾ لأنه حرام. وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: عذاب لهم، وخزي لهم، وقبح لهم ، مما فعلوا من تحريف الكتاب، ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩.

من المعاصي. وقيل: مما يجمعون من المال والحرام، والرشى التي يأخذونها من العوام.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠

المعنى: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي: قالت اليهود ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ أي: لن تصيبنا ﴿ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ معناه: أياماً قلائل، كقوله:﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾يوسف: ٢٠. وقيل: معدودة محصاة. والمعدودة إذا أُطلقت كان معناها القليلة. قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ﴾ يا محمد لهم﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾أي: موثقاً أنه لا يعذبكم إلاَّ هذه المدة، وعرفتم ذلك بوحيه وتنزيله. فإن كان ذلك فالله سبحانه لا ينقض عهده وميثاقه ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الباطل جهلاً منكم به، وجرأة عليه.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا

﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١

المعنى: ردّ الله تعالى على اليهود قلوبهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾ فقال: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا، ولكن ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ اختلف في السيئة، فقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: السيئة ههنا: الشرك. وقال الحسن: هي الكبيرة الموجبة للنار. وقال السدّي: هي الذنوب التي أرعد الله عليها النار والقول الأول يوافق مذهبنا، لأن ما عدا الشرك لا يستحق به الخلود في النار عندنا.

وقوله: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: يحتمل أمرين أحدهما: إنها أحدقت به من كل جانب، كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٤٩، والثاني: إنَّ المعنى أهلكته من قوله: ﴿ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ ﴾ يوسف: ٦٦، وقوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ﴾ يونس: ٢٢ . وقوله: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ الكهف: ٤٢. وهذا كله بمعنى البوار والهلكة. فالمراد: إنها سدّت عليهم طريق النجاة. وروي عن ابن عباس والضحاك وأبي العالية أنّ المراد بالخطيئة الشرك. وعن الحسن أنها الكبيرة. وعن عكرمة، ومقاتل أنها الإصرار عن الذنب. وإنما قال: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ ، ولم يقل وأحاطت به سيئته، خالف بين اللفظين، ليكون أبلغ وأفصح.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾

أي: يصحبون النار، ويلازمونها ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أي: دائمون أبداً، عن ابن عباس وغيره. والذي يليق بمذهبنا من تفسير هذه الآية قول ابن عباس لأن أهل الإيمان لا يدخلون في حكم هذه الآية، وقوله: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: يقوي ذلك، لأن المعنى: إنَّ خطاياه قد اشتملت عليه، وأحدقت به، حتى لا يجد عنها مخلصاً ولا مخرجاً. وقد دل الدليل على بطلان التحابط. ولأن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨٢. فيه وعد لأهل التصديق والطاعة

بالثواب الدائم، فكيف يجتمع الثواب الدائم مع العقاب الدائم؟

ويدل أيضاً على أن المراد بالسيئة في الآية الشرك، فيبطل الاحتجاج بالآية على دخول العمل في الإيمان، على ما ذكره أهل التفسير: إنَّ سيئة واحدة لا تحبط جميع الأعمال، عند أكثر الخصوم، فلا يمكن إذاً إجراء الآية على العموم، فيجب أن يحمل على أكبر السيئات، وأعظم الخطيئات، وهو الشرك ليمكن الجمع بين الآيتين.

*** القرطبي:**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ القسوة: الصلابة والشدة واليبس. وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. قال أبو العالية وقتادة وغيرها: المراد قلوب جميع بني إسرائيل. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القتيل؛ لأنهم حين حَيي وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوباً، ولا اشد تكذيباً لنبيهم منهم عند ذلك، لكن نفذ حكم الله بقتله. روى الترمذي عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله (ص) «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاس». وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله (ص): «أربعة من الشقاء جمود العين وقساء القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا».

قوله تعالى: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة: ٧٤ (أو) قيل: هي بمعنى الواو، كما قال: ﴿ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٢٤ . ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ المرسلات: ٦ . وقيل: هي بمعنى بل؛ كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ الصافات: ١٤٧ المعنى

بل يزيدون.

قوله تعالى: ﴿ أَوۡ أَشَدُّ ﴾ ﴿ أَشَدُّ ﴾ مرفوع بالعطف على موضع الكاف في قوله: ﴿ كَٱلۡحِجَارَةِ ﴾؛ لأن المعنى فهي مثل الحجارة أو أشد. ويجوز أو ﴿ أَشَدُّ ﴾ بالفتح عطف على الحجارة. و﴿ قَسۡوَةً ﴾ نصب على التمييز. وقرأ أبو حيان الأندلسي (قساوة) والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾ البقرة: ٧٤ قد تقدم معنى الانفجار. ويشقق أصله يتشقق، أدغمت التاء في الشين؛ وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تتشقق وإن لم يجر ماء منفسخ. وقرأ أين مصرّف (ينشق) بالنون، وقرأ (لما ينفجر) (لما يشقق) بتشديد (لما) في الموضعين.

وهي قراءة غير متجهة. وقرأ مالك بن دينار (ينفجر) بالنون وكسر الجيم. قال قتادة: عُذرت الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم. قال أبو حاتم: يجوز لما تتفجر بالتاء، ولا يجوز لما تتشقق بالتاء، لأنه إذا قال تتفجر أنثه بتأنيث الأنهار، وهذا لا يكون في تشقق.

قال النحاس: يجوز ما أنكره على المعنى، لأن المعنى وإن منها لحجارة تشقق، وأما يشقّق فمحمول على لفظ ما. والشق واحد الشقوق، فهو في الأصل مصدر، تقول: بيد فلان ورجليه شقوق، ولا تقل: شقاق؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها، عن يعقوب. والشّق: الصّخر و(ما) في قوله: (لما يتفجر) في موضع نصب، لأنها اسم إن واللام للتأكيد. (منه) على لفظ ما، ويجوز منها على المعنى، وكذلك ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾ وقرأ قتادة: (وإنْ) في الموضعين، مخففة من الثقيلة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ ﴾ يقول: إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم، لخروج الماء منها وتردّيها. قال مجاهد: ما تردى حجر من راس جبل، ولا تفجر نهر من حجر ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل

بذلك القرآن الكريم. ومثله عن ابن جريج.

وقال بعض المتكلمين في قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾: البرَد الهابط من السحاب. وقيل: لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها، كما قالت العرب: ناقة تاجرة، أي تبعث من يراها على شرائها. وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة، كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾الكهف: ٧٧ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾﴿ بِغَٰفِلٍ ﴾في موضع نصب على لغة أهل الحجاز وعلى لغة تميم في موضع رفع. والياء توكيد. ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾أي عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم؛ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٧ - ٨. ولا تحتاج (ما) إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذي فيحذف العائد لطول الاسم؛ أي عن الذي تعملونه. وقرأ ابن كثير (يعلمون) بالياء؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٧٥ .

قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك. والخطاب لأصحاب النبي (ص) وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. وقيل: الخطاب للنبي (ص) خاصة؛ عن ابن عباس. أي لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا. و(أن) في موضع نصب، أي في أن يؤمنوا، نصب بأن، ولذلك حذفت منه النون.

يقال: طمع فيه طمعاً وطماعية ـ مخفف ـ فهو طمع، على وزن فعِل،

وأطمعه فيه غيره. ويقال في التعجب: طمُع الرجل ـ بضم الميم ـ أي صار كثير الطمع. والطمع: رزق الجنْد، يقال: أمر لهم الأمير بأطماعهم، أي بأرزاقهم. وامرأة مطماع: تُطمِع ولا تُمكّن.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه في أدنى العدد أفرقة، وفي الكثير أفرقاء. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في موضع نصب خبر (كان). ويجوز أن يكون الخبر (منهم)، ويكون (يسمعون) نعتاً لفريق؛ وفيه بعد (كلام الله) قراءة الجماعة. ومن قال: إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ، وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم. وقد قال السّدي وغيره: لم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعيده لهم؛ فلما فرغوا وخرجوا بدلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾التوبة: ٦ .

إن المعجزة دلت على أن ما سمعه هو كلام الله؛ وذلك أنه قيل به:﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [الأعراف/١١٧ـ القصص/٣١] فألقاها فصارت ثعباناً، فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذي يقول له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾طه: ١٢ هو الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ قال مجاهد والسدي: هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً اتباعاً لأهوائهم. ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي عرفوه وعلموه وهذا توبيخ لهم، أي إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السنن، فكيف تطمعون في إيمانهم!

ودلّ هذا الكلام أيضاً على أن العالم بالحقّ المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا

فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾البقرة: ٧٦-٧٧ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ هذا في المنافقين. وأصل﴿لَقُواْ ﴾ لقيوا وقد تقدم: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ الآية في اليهود، وذلك أن ناساً منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آباؤهم، فقالت لهم اليهود: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾. أي حكم عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم، عن ابن عباس والسّدي. وقيل: إن علياً لما نازل قريظة يوم خيبر سمع سبّ رسول الله (ص) فانصرف إليه وقال: يا رسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرّض له؛ فقال: «أظنك سمعت شتمي فهم لو رأوني لكفوا عن ذلك» ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا، فقال لهم: «أنقضتم العهد يا أخوة القردة والخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته» فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا، من حدثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا! روي هذا المعنى عن مجاهد.

قوله تعالى:﴿ وَإِذَا خَلَا ﴾ الأصل في «خلا» خلَوَ، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وتقدم معنى (خلا) في أول السورة. ومعنى (فتح) حَكَم. والفتح عند العرب: القضاء والحُكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾الأعراف: ٨٩. أي الحاكمين. والفتّاح: القاضي بلغة اليمن؛ يقال: بيني وبينك الفتاح؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم. والفتح: النصر؛ ومنه قوله:﴿ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾البقرة: ٨٩ ، وقوله:﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ ﴾الأنفال: ١٩ . ويكون بمعنى الفرق بين الشيئين.

قوله تعالى:﴿ لِيُحَآجُّوكُم ﴾ نصب بلام كي، وإن شئت بإضمار أنْ، وعلامة النصب حذف النون. قال يونس: وناس من العرب يفتحون لام كي. قال الأخفش: لأن الفتح الأصل. قال خلف الأحمر: هي لغة بني العنبر. ومعنى ﴿ لِيُحَآجُّوكُم ﴾ليعيّروكم، ويقولوا نحن أكرم على الله منكم. وقيل: المعنى

ليحتجوا عليكم بقولكم؛ يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه. وقيل: إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له: تمسّك بدين محمد فإنه نبي حقاً. ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ قيل في الآخرة؛ كما قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ الزمر: ٣١ . وقيل: عند ذكر ربكم. وقيل: (عند) بمعنى «في» أي ليحاجوكم به في ربكم، فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم، روي عن الحسن. والحجة: الكلام المستقيم على الإطلاق، ومن ذلك محجّة الطريق. وحاججت فلاناً فحججته، أي غلبته بالحجة، ومنه الحديث: (فحجّ آدم موسى). قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قيل: هو من قول الأحبار للأتباع. وقيل: هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين، أي أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؛ ثم وبخهم توبيخاً يتلى فقال: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية. فهو استفهام معناه التوبيخ والتقريع. وقرأ الجمهور ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياء، وابن محيض بالتاء، خطاباً للمؤمنين. والذي أسروه كفرهم، والذي أعلنوه الجحد به.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾البقرة: ٧٨ .

قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي من اليهود. وقيل: من اليهود والمنافقين أميون؛ أي من لا يكتب ولا يقرأ، واحدهم أمي، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها، ومنه قوله عليه السلام: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» الحديث. وقد قيل لهم أميون لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب، عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكأنه قال ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب. وعن عكرمة والضحاك: هم نصارى العرب. وقيل: هم قوم من أهل الكتاب، رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين. وعن علي رضي الله عنه: هم المجوس.

قوله تعالى:﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾

«إلا» ها هنا بمعنى لكن، فهو استثناء منقطع، كقوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾النساء: ١٥٧ .

والأماني جمع أمنية وهي التلاوة، وأصلها أمنوية على وزن أفعولة، فأدغمت الواو في الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أمنية؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾الحج: ٥٢ أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (إن) بمعنى ما النافية، كما قال تعالى ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾الملك: ٢٠ و﴿ يَظُنُّونَ ﴾ يكذبون ويحدثون، لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون، وإنما هم مقلدون لأحبارهم في ما يقرأون به.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: نعت الله تعالى أحبارهم، بأنهم يبدلون ويحرفون فقال وقوله الحق: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾البقرة: ٧٩ الآية. وذلك أنه لما درس الأمر فيهم، وساءت رعية علمائهم، وأقبلوا على الدنيا حرصاً وطمعاً. طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم، فأحدثوا في شريعتهم وبدلوها، وألحقوا ذلك بالتوراة، وقالوا لسفهائهم: هذا من عند الله؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رياستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها. وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل وهم العرب، أي ما أخذنا من أموالهم فهو حل لنا. وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا: لا يضرنا ذنب، فنحن أحباؤه وأبناؤه، تعالى الله عن ذلك! وإنما كان في التوراة «يا أحباري ويا أبناء رسلي» فغيروه وكتبوا «يا أحبائي ويا أبنائي» فأنزل الله تكذيبهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾المائدة: ١٨ . فقالت: لن يعذبنا الله، وإن عذبنا فأربعين يوماً مقدار أيام العجل؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ البقرة:٨٠ قال ابن مقسم: يعني توحيداً، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾مريم: ٨٧ يعني لا إله إلا الله ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠ ثم أكذبهم فقال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١ - ٨٢ فبين تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان، لا بما قالوه.

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩

قوله: ﴿ فَوَيۡلٞ ﴾ اختلف في الويل ما هو؛ فروى عثمان بن عفان عن النبي (ص) أنه جبل من نار. وروى أبو سعيد الخدري أن الويل واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً. وروى سفيان وعطاء بن يسار: أن الويل في هذه الآية وادٍ يجري بفناء جهنم من حديد أهل النار. وقيل: صهريج في جهنم. وحكى الزهراوي عن آخرين: أنه باب من أبواب جهنم. وعن ابن عباس: الويل المشقة من العذاب. وقال الخليل: الويل شدة الشر. الأصمعي: الويل تفجّع، والويح ترحم. سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلكة. وعن ابن عرفة: الويل الحزن، يقال: تويّل الرجل إذا دعا بالويل؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه.

وارتفع ﴿ فَوَيۡلٞ ﴾ بالابتداء، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء. قال الأخفش ويجوز النصب على إضمار فعل؛ أي ألزمهم الله ويلاً. وقال الفرّاء: الأصل في الويل (ويْ) أي حزن، كما تقول: ويْ لفلان؛ أي حزن له، فوصلته العرب باللام وقدروها منه فأعربوها والأحسن فيه إذا فصل عن الإضافة الرفع، لأنه يقتضي الوقوع. ويصح النصب على معنى الدعاء كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ الكتابة معروفة. وأول من كتب بالقلم وخط به إدريس عليه السلام وجاء ذلك في حديث أبي ذر، خرّجه الآجري وغيره. وقد قيل: إن آدم عليه السلام أعطى الخط فصار وراثة في ولده.

قوله تعالى: ﴿ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ تأكيد، فإنه قد علم أن الكتْب لا يكون إلا باليد، فهو مثل قوله: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ الأنعام: ٣٨ ، وقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم ﴾

آل عمران: ١٦٧ . وقيل: فائدة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم، فإن من تولى الفعل أشد مواقعة ممن لم يتولّه وإن كان رأياً له وقال ابن السراج: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن أنهم من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم.

قوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا﴾ وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة، إما لفنائه وعدم ثباته وإما لكونه حراماً، لأن الحرام لا بركة فيه ولا يربو عند الله. قال ابن إسحاق والكلبي: كانت صفة رسول الله (ص) في كتابهم ربْعة أسمر؛ فجعلوه آدم سبطاً طويلاً، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبي (ص) الذي يُبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب، فخافوا إن بيّنوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم، فمن ثم غيّروا.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾قيل من المآكل وقيل من المعاصي. وكرّر الويل تغليظاً لفعلهم.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٨٠

قوله تعالى:﴿وَقَالُوا﴾ يعني اليهود ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ اختلف في سبب نزولها، فقيل: إن النبي (ص) قال لليهود: «من أهل النار» قالوا: نحن، ثم تخلفونا أنتم. فقال: «كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم» فنزلت هذه الآية؛ قاله ابن زيد. وقال عكرمة عن ابن عباس قدم رسول الله (ص) المدينة واليهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف، وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام، فأنزل الله الآية؛ وهذا قول مجاهد. وقالت طائفة: قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم. ورواه الضحاك عن ابن عباس.

في هذه الآية رد على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه

السلام: «دعي الصلاة أيام أقرأك» في أن مدة الحيض ما يسمى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة؛ لأن ما دون الثلاثة يسمى يوماً ويومين، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوماً ولا يقال فيه أيام، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة، قال الله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ البقرة:١٦٩، ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ هود: ٦٥ ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾الحاقة: ٧ .

فيقال لهم: فقد قال الله تعالى في الصوم: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾يعني جميع الشهر؛ وقال:﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ آل عمران: ٢٤ يعني أربعين يوماً. وأيضاً فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يرد به تحديد العَدَد؛ بل يقال: أيام مشيك وسفرك وإقامتك، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد؛ ولعله أراد ما كان معتاداً لها، والعادة ست أو سبع، فخرِّج الكلام عليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ تقدم القول في (اتخذ) فلا معنى لإعادته. ﴿ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ أي أسلفتم عملاً صالحاً فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوحيه الذي عهده إليكم ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٨٠ توبيخ وتقريع.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١ - ٨٢

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم. قال سيبويه: ليست «بلى» و«نعم» اسمين. وإنما هما حرفان مثل «بل» وغيره؛ وهي رد لقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ وقال الكوفيون: أصلها بل التي للإضراب عن الأول، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف، وضُمنت الياء معنى الإيجاب والإنعام. فـ(بل) تدل على رد الجحد، والياء تدل على الإيجاب لما بعد قالوا: ولو قال قائل: ألم تأخذ ديناراً؟ فقلت: نعم؛ لكان المعنى لا، لم آخذ؛ لأنك حققت النفي وما بعده. فإذا قلت: بلى، صار المعنى قد أخذت. قال الفراء: إذا قال الرجل لصاحبه: مالك عليّ شيء،

فقال الآخر: نعم؛ كان ذلك تصديقاً، لأن لا شيء له عليه؛ ولو قال بلى كان رداً لقوله:: وتقديره: بلى لي عليك وفي التنزيل ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ﴾الأعراف: ١٧٢ ولو قال نعم لكفروا.

قوله تعالى: ﴿سَيِّئَةً﴾ السيئة الشرك. قال ابن جريج قلت لعطاء: «من كسب سيئة»؟ قال: الشرك، وتلا ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾النمل: ٩٠. وكذا قال الحسن وقتادة، قالا: الخطيئة الكبيرة.

لما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ دلّ على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما؛ ومثله قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾فصلت: ٣٠ ، وقوله عليه السلام لسفيان بن عبدالله الثقفي وقد قال له: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وقد مضى القول في هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعالى لآدم وحواء:﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة: ٣٥ . وقرأ نافع (خطيئته) بالجمع، الباقون بالأفراد والمعنى الكثرة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ ﴾إبراهيم: ٣٤ .

***الشيرازي:**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾.

إنها أشد قسوة من الحجارة، لأن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو تسقط من خوف الله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾..

لكن قلوب بني إسرائيل أشدّ قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حبّ، ولا تخفق من خوف الله.

والله عالم بما تنطوي عليه القلوب وما تفعله الايدي: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعۡمَلُونَ ﴾.

العِبر في هذه القصّة:

هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد، ولذلك وردت في الآية ٧٣ عبارة ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ إشارة إلى مسألة المعاد، وعبارة ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ تأكيد على قدرة الله وعظمته.

إضافة إلى ماسبق، هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن الله تعالى، وهي أن الأُمّة تستوجب غضب الله حين تصرّ على عنادها ولجاجها واستهتارها بكل شيء.

العبارات التي وردت على لسان بني إسرائيل في هذه القصة توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة في إهانة النّبي، بل وبلغت بهم الجرأة إلى إساءة الأدب تجاه ربّ العالمين.

في البداية قالوا لنبيّهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ وبذلك اتهموا نبيّهم بارتكاب ذنب الإستهزاء بالآخرين.

وفي مواضع عديدة خاطبوه بعبارة ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾، وكأن ربّ موسى غير ربّهم، مع أن موسى قد قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾.

وقالوا له أيضاً: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴾ ويعنون بذلك أنّ كلام موسى أدّى إلى ضلالهم في تشخيص البقرة، ثمّ يخاطبوه في النهاية: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم وتعنّتهم وغرورهم ولجاجهم.

وهذه القصة من جهة أُخرى تعلّمنا أننا ينبغي أن لا نتزمّت ولا نتشدّد في الأُمور كي لا يتشدّد الله معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل.

يذكر المفسرون أنّ البقرة التي ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيدة لا تشاركها بقرة أُخرى في ذلك، ولذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمن باهظ.

ويقولون: إن هذه البقرة كانت ملكاً لشاب صالح على غاية البّر بوالده. هذا الرجل واتته سابقاً فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقداً. وكانت النقود في صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائماً، فأبى إيقاظه وازعاجه، ففضّل أن يترك الصفقة على أن يوقظ والده.

وقال بعض المفسرين: ((كان البائع على استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفاً نقداً، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واقترح شراء تلك البضاعة بثمانين ألفاً على أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده. وأخيراً لم تتم صفقة المعاملة، ولذا أراد الله تعالى تعويضه على ايثاره هذا بمعاملة أُخرى وفيرة الربح.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد وعلمه بالأمر، أهدى لولده البقرة المذكورة، فدّرت عليه ربحاً عظيماً)).

وإلى هذه القصّة يشير رسول الله (ص) إذ يقول: ((أُنْظُروا إِلَى البّر مَا بَلَغَ بَأَهْلِه)).

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ البقرة: ٧٥-٧٧ .

سبب النّزول:

روي عن الإمام أبي جعفر محمّد بن علي الباقر(ع) أنّه قال: ((كَانَ قَوْمٌ مِنَ

الْيَهُود لَيْسُوا منَ الْمُعَاندينَ الْمُتَوطئينَ، إذَا لَقُوا الْمُسْلمينَ حَدَّثُوهُمْ بمَا في التَّوْرَاة مَنْ صفَة محمّد، فَنَهَاهُمْ كُبَراؤُهُمْ عَنْ ذَلكَ، وَقَالُوا: لاَ تُخْبرُوهُمْ بمَا في التَّوْرَاة منْ صَفَة محمّد فَيُحَاجُّوكُمْ به عنْدَ رَبِّكُمْ فَنَزَلَتْ هذه الآية)).

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بني إسرائيل، وفي هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصّرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقلوه ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٧٥ .!

وهذه عظة للمسلمين، ودفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود وجذبهم إلى الدين الجديد.

الآيتان الكريمتان توضحان أن السبب في عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنية وسائر المعاجز النبوية الأُخرى، إنما يعود لعناد متأصل في هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام الله عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم.

من عبارة﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ نفهم أن بني إسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقاً منهم ـ ومن المحتمل أن يشكل عددهم أكثرية بني إسرائيل ـ كانوا هم المحرفين.

ورد في أسباب النّزول أن مجموعة من بني إسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: ((سمعنا أن الله قال لموسى: إعملوا بأوامري قدر استطاعتكم، واتركوها متى تعذر عليكم العمل بها)) ! وكان ذلك أول تحريف في بني إسرائيل.

على أي حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرّسالة الإسلامية بعد إعلانها لأنهم أهل كتاب (خلافاً للمشركين)، ولأنهم قرأوا صفات النّبي (ص) في كتبهم. لكن القرآن يوجه أنظار المسلمين إلى سوء السابقة

لدى هؤلاء القوم، ويوضح لهم أن الإنحراف النفسي يدفع إلى الإعراض عن الحقيقة، مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بيّنة.

الآيه التّالية تلقي الضوء على حقيقة مُرّة أُخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة وتقول: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾البقرة: ٧٦ .؟!

من المحتمل أيضاً أن تتحدث هذه الآية في صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالأيمان لدى لقائهم بالمسلمين، ويبرزون إنكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون أولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا في التوراة من أسرار.

هذه الآية ــ على أي حال ــ تأييد للآية السابقة، التي نهت المسلمين عن عقد الأمل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة ﴿بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ قد تعني الميثاق الإلهي الذي كان محفوظاً لدى بني إسرائيل. وقد تشير إلى الأسرار الإلهية المرتبطة بالشريعة الجديدة.

ويتضح من الآية أن إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفاً إلى درجة أنهم تصوروا الله مثل إنسان عاديّ، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فسيخفى عن الله أيضاً.

لذلك تقول الآية التالية بصراحة: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟!

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٨ - ٧٩ .

سبب النّزول:

عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبي الإسلام في التوراة من أجل صيانة مصالحهم، واستمرار الأموال التي كانت تتدفق عليهم سنوياً من جَهَلَة اليهود. فعند ظهور النّبي (ص) غيّروا ما ذكر من صفاته في التوراة وأبدلوها بصفات أُخرى على العكس منها، كي يموّهوا الأمر على الأُميين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النّبي في التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النّبي الجديد قرأُوا لهم الآيات المحرّفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

بعد الحديث عن إنحرافات اليهود في الآيات السابقة قسّمت هاتان الآيتان اليهود على مجموعتين: أُميين وعلماء ماكرين، (هناك طبعاً أقلية من علمائهم آمنت والتحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعة الأُولى يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ البقرة: ٧٨ ..

والأُميّون جمع أُمّيّ، والأُمّيّ غير الدارس. وسمّوا بذلك لأنهم في معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدّة تعلق أُمّهاتهم بهم، صعب عليهنّ فراقهم جهلاً، ومنعنهم من الذهاب إلى المدرسة.

والأماني جمع أُمنية، ولعل الآية تشير هنا إلى الإمتيازات الموهومة التي كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ المائدة: ١٨، وكقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ آل عمران: ٢٤ .

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الأماني الآيات المحرفة التي كان علماء اليهود يشيعونها بين الأُميين من الناس، وهذا المعنى ينسجم أكثر مع قوله تعالى: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾.

وعلى أي حال عبارة: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ دلالة واضحة على بطلان اتّباع الظن في فهم أُصول الدين ومعرفة مدرسة الوحي، ولابدّ من التتبع والتحقيق في هذا الأمر.

ثمّة مجموعة أُخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، وإلى هؤلاء يشير القرآن: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾. ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

ومن العبارة الأخيرة نفهم الهدف الدنيء لهؤلاء، وكذلك عاقبتهم الوخيمة.

وقد أورد بعض المفسرين حديثاً عن الإمام الصادق(ع) في تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق(ع): «إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلاَّ بما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلاَّ كعوامنا، يقلّدون علماءهم ــ إلى أن قال ــ فقال(ع): ((بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنّ اللّه ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قدعرفوا علماءهم بالكذب الصراح، وأكل الحرام، والرشاء وتغيير الأحكام، واضطرّوا بقلوبهم إلى أنّ من فعل ذلك فهو فاسق، لايجوز أن يصدّق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمّهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، والعصبيّة الشديدة، والتكالب على الدُنيا وحرامها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لايكون إلاَّ بعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإنَّ من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامة، فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولاكرامة، وإنمّا كثر التخليط فيما يتحمّل عنّا أهل البيت لذلك، لأنَّ الفسقة يتحمّلون عنّا فيحرّفونه بأسره لجهلهم، ويضعون الأشياء على غير وجهها لقلّة معرفتهم وآخرون يتعمّدون الكذب علينا)).

واضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبدي في الأحكام، بل يشير إلى اتباع العلماء من أجل تعلم أُصول الدين، لأن الحديث يتناول معرفة النّبي، وهذه المعرفة من أُصول الدين، ولا يجوز فيها التقليد التعبدي.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨٠ - ٨٢ .

يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من إنحرافات هؤلاء القوم:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، ثم تجيبهم الآية بأسلوب مُفحم: قُلْ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٨٠ .

اعتقاد اليهود بأنّهم شعب الله المختار، وأن عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشرية، وأن مذنبيهم لن يدخلوا جهنم سوى أيّام قليلة ليتنعموا بعدها بالجنّة، من مظاهر أنانية هؤلاء واستفحال ذاتياتهم.

ادعاء اليهود المذكور في الآية الكريمة لا ينسجم مع أي منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين أفراد البشر أي تفاوت في نيل الثواب والعقاب أمام الله سبحانه وتعالى.

بِمَ استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الإلهي؟!

الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقي، وتفهمهم أن مزاعمهم هذه إمّا أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذوه عند اللّه، ولا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على الله.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة التّالية قانوناً عاماً يقوم على أساس المنطق وتقول: ﴿ بَلَىٰ وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨١

وهذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئة وقوم.

وبشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبيّنه الآية التالية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

كسب السيئة:

الكسب والإكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة واختيار، من هنا عبارة ﴿بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ إشارة إلى أولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وعن عمد. وتعبير الآية بكلمة ((كَسَبَ)) قد يكون إشارة إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التي يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظاناً أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، ويتحمل بتركه خسارة! وإلى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتي بعد عدد من الآيات إذ يقول سبحانه: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْاخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

إحاطة الخطيئة:

الخطيئة تستعمل غالباً في الذنوب التي لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت في هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة، أو بمعنى آثار الذنب في قلب الإنسان وروحه.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعني إنغماس الفرد في الذنب إلى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعبارة أوضح، الذنوب الكبيرة والصغيرة تبدأ على شكل ((فعل)) ثم تتحول إلى ((حالة)) ومع الإستمرار والإصرار تتحول إلى ((ملكة)). وعند اشتدادها

تغمر وجود الإنسان وتصبح عين وجوده. عندئذ لا تجدي مع هذا الفرد موعظة ولا يؤثر فيه توجيه ولا نصح، إذ أنه عَمِلَ عن اختيار، على قلب ماهيته فمثلهم مثل دودة القز التي تلف حولها من نسيج الحرير حتى تمسي سجينة عملها.

الآية الكريمة تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الأفراد في النار، وهذا يعني أن هؤلاء يغادرون الدنيا وهم مشركون. لأن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

*** الفخر الرازي:**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾البقرة: ٧٤

اعلم أن قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: الشيء الذي من شأنه بأصل ذاته أن يقبل الأثر عن شيء آخر ثم إنه عرض لذلك القابل ما لأجله صار بحيث لا يقبل الأثر فيقال لذلك القابل: إنه صار صلباً غليظاً قاسياً، فالجسم من حيث إنه جسم يقبل الأثر عن الغير إلاّ أن صفة الحجرية لما عرضت للجسم صار جسم الحجر غير قابل وكذلك القلب من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو والاستكبار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه من هذه الصفة فصار في عدم التأثر شبيهاً بالحجر فيقال: قسا القلب وغلظ، ولذلك كان الله تعالى وصف المؤمنين بالرِّقة فقال:﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

الزمر: ٢٣ .

المسألة الثانية: قال القفال: يجوز أن يكون المخاطبون بقوله:﴿ قُلُوبُكُم ﴾

أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم)، أي اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم والأمور التي جرت عليهم والعقاب الذي نزل بمن أصر على المعصية منهم والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم، فاخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب، وهذا أولى لأن قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطاب مشافهة، فحمله على الحاضرين أولى، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى (عليه السلام) خصوصاً، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم.

المسألة الثالثة: قوله تعالى:﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من بعد ما أظهره الله تعالى من إحياء ذلك القتيل عند ضربه ببعض البقرة المذبوحة حتى عين القاتل، فإنه روي أن ذلك القتيل لما عين القاتل نسبه القاتل إلى الكذب وما ترك الإنكار، بل طلب الفتنة وساعده عليه جمع، فعنده قال تعالى واصفاً لهم: إنهم بعد ظهور مثل هذه الآية قست قلوبهم، أي صارت قلوبهم بعد ظهور مثل هذه الآية في القسوة كالحجارة ويحتمل أن يكون قوله:﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى جميع ما عدد الله سبحانه من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها على يد موسى (عليه السلام)، فإن أولئك اليهود بعد أن كثرت مشاهدتهم لها ما خلوا من العناد والاعتراض على موسى (عليه السلام) وذلك بين في أخبارهم في التيه لمن نظر فيها.

أما قوله تعالى:﴿ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾ فيه مسائل.

المسألة الأولى: كلمة «أو» للترديد وهي لا تليق بعلام الغيوب، فلا بد من التأويل وهو وجوه.أحدها: أنها بمعنى الواو كقوله تعالى ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾الصافات: ١٤٧ بمعنى ويزيدون، وكقوله تعالى:﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾النور: ٣١ ، والمعنى وآبائهن وكقوله:﴿ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ

﴿ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ ﴾النور: ٦١ ، يعني وبيوت آبائكم. ومن نظائره قوله تعالى:﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾طه: ٤٤ ، ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ المرسلات: ٥ - ٦ . وثانيها: أنه تعالى أراد أن يبهمه على العباد فقال ذلك كما يقول المرء لغيره: أكلت خبزاً أو تمراً وهو لا يشك أنه أكل أحدهما إذا أراد أن يبينه لصاحبه. وثالثها: أن يكون المراد فهي كالحجارة، ومنها ما هو أشد قسوة من الحجارة، ورابعها: أن الآدميين إذا اطلعوا على أحوال قلوبهم قالوا: إنها كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة وهو المراد في قوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾النجم: ٩ ، أي في نظركم واعتقادكم. وخامسها: أن كلمة «أو» بمعنى بل وأنشدوا:

فوالله ما أدري أسلمى تغولت أم القوم أو كل إلي حبيب

قالوا: أراد بل كل. وسادسها: أنه على حد قولك ما آكل إلاّ حلواً أو حامضاً أي طعامي لا يخرج عن هذين، بل يتردد عليهما، وبالجملة: فليس الغرض إيقاع التردد بينهما، بل نفي غيرهما. وسابعها: أن «أو» حرف إباحة كأنه قيل بأي هذين شبهت قلوبهم كان صدقاً كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين أي أيهما جالست كنت مصيباً ولو جالستهما معاً كنت مصيباً أيضاً.

المسألة الثانية: إنما وصفها بأنها أشد قسوة لوجوه.أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلتها كما قال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾الحشر: ٢١ . وثانيها: أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره، وهؤلاء مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾الأنعام: ٣٨ ، إلى قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ الأنعام: ٣٩ كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أمم سخر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم.

وثالثها: أو أشد قسوة، لأن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها ألبتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ولم يقل أقسى، لأن ذلك أدل على فرط القسوة ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة، وقرىء «قساوة» وترك ضمير المفضل عليه لعدم الالباس كقولك: زيد كريم وعمرو أكرم. ثم إنه سبحانه وتعالى فضل الحجارة على قلوبهم بأن بين أن الحجارة قد يحصل منها ثلاثة أنواع من المنافع، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من المنافع. فأولها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التفجر التفتح بالسعة والكثرة، يقال: انفجرت قرحة فلان، أي انشقت بالمدة ومنه الفجر والفجور.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾، أي من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء فيكون عيناً لا نهراً جارياً، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

واعلم أن فيه إشكالاً وهو أن الهبوط من خشية الله صفة الأحياء العقلاء، والحجر جماد فلا يتحقق ذلك فيه، فلهذا الإشكال ذكروا في هذه الآية وجوهاً. أحدها: قول أبي مسلم خاصة وهو أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾

راجع إلى القلوب، فإنه يجوز عليها الخشية والحجارة لا يجوز عليها الخشية: وقد تقدم ذكر القلوب كما تقدم ذكر الحجارة، أقصى ما في الباب أن الحجارة أقرب المذكورين، إلاّ أن هذا الوصف لما كان لائقاً بالقلوب دون الحجارة وجب رجوع هذا الضمير إلى القلوب دون الحجارة، واعترضوا عليه من وجهين.الأول: أن قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ جملة تامة، ثم

ابتدأ تعالى فذكر حال الحجارة بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فيجب في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أن يكون راجعاً إليها، الثاني: أن الهبوط يليق بالحجارة لا بالقلوب، فليس تأويل الهبوط أولى من تأويل الخشية، وثانيها: قول جمع من المفسرين: إن الضمير عائد إلى الحجارة، لكن لا نسلم أن الحجارة ليست حية عاقلة، بيانه أن المراد من ذلك جبل موسى عليه السلام حين تقطع وتجلى له ربه، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق فيه الحياة والعقل والإدراك، وهذا غير مستبعد في قدرة الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾فصلت: ٢١ ، فكما جعل الجلد ينطق ويسمع ويعقل، فكذلك الجبل وصفه بالخشية، وقال أيضاً: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾الحشر: ٢١ ، والتقدير أنه تعالى لو جعل فيه العقل والفهم لصار كذلك، وروي أنه حن الجزع لصعود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المنبر، وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه لما أتاه الوحي في أول المبعث وانصرف النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى منزله سلمت عليه الأحجار والأشجار، فكلها كانت تقول: السلام عليك يا رسول الله، قالوا: فغير ممتنع أن يخلق في بعض الأحجار عقل وفهم حتى تحصل الخشية فيه، وأنكرت المعتزلة هذا التأويل لما أن عندهم البنية واعتدال المزاج شرط قبول الحياة والعقل، ولا دلالة لهم على اشتراط البنية إلاّ مجرد الاستبعاد، فوجب أن لا يلتفت إليهم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فالمعنى أن الله تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم محصي لها فهو يجازيهم بها في الدنيا والآخرة وهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ مريم: ٦٤ ، وفي هذا وعيد لهم وتخويف كبير لينزجروا. فإن قيل: هل يصح أن يوصف الله بأنه ليس بغافل؟ قلنا: قال القاضي: لا يصح لأنه يوهم جواز الغفلة عليه وليس الأمر كذلك لأن نفي الصفة عن الشيء لا يستلزم ثبوت صحتها عليه، بدليل قوله

تعالى ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾البقرة: ٢٥٥ ، ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾الأنعام: ١٤ والله أعلم. ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٧٥ .

اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى ههنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم)، قال القفال رحمه الله: إن في ما ذكره الله تعالى في هذه السورة من أقاصيص بني إسرائيل وجوهاً من المقصد، أحدها: الدلالة بها على صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه أخبر عنها من غير تعلم، وذلك لا يمكن أن يكون إلاّ بالوحي ويشترك في الانتفاع بهذه الدلالة أهل الكتاب والعرب، أما أهل الكتاب فلأنهم كانوا يعلمون هذه القصص فلما سمعوها من محمد من غير تفاوت أصلاً، علموا لا محالة أنه ما أخذها إلاّ من الوحي. وأما العرب قلّما يشاهدون من أن أهل الكتاب يصدقون محمداً في هذه الأخبار. وثانيها: تعديد النعم على بني إسرائيل وما منّ الله تعالى به على أسلافهم من أنواع الكرامة والفضل كالإنجاء من آل فرعون بعدما كانوا مقهورين مستعبدين ونصره إياهم وجعلهم أنبياء وملوكاً وتمكينه لهم في الأرض وفرقه بهم البحر وإهلاكه عدوهم وإنزاله النور والبيان عليهم بواسطة إنزال التوراة والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ونقض المواثيق ومسألة النظر إلى الله جهرة، ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء العذب من الحجر وإنزاله عليهم المن والسلوى ووقايتهم من حر الشمس بتظليل الغمام، فذكرهم الله هذه النعم القديمة والحديثة،وثالثها: إخبار النبي (عليه السلام) بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاقهم وتعنتهم مع الأنبياء ومعاندتهم لهم وبلوغهم في ذلك ما لم يبلغه أحد من الأمم قبلهم، وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل بعد مفارقة موسى عليه السلام إياهم بالمدة اليسيرة، فدل على بلادتهم، ثم لما أمروا بدخول الباب سجداً وأن يقولوا حطة ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم

ويزيد في ثواب محسنهم بدلوا القول وفسقوا، ثم سألوا الفوم والبصل بدل المن والسلوى، ثم امتنعوا من قبول التوراة بعد إيمانهم بموسى وضمانهم له بالمواثيق أن يؤمنوا به وينقادوا لما يأتي به حتى رفع فوقهم الجبل ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا، ثم لما أمروا بذبح البقرة شافهوا موسى (عليه السلام) بقولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ البقرة: ٦٧ ، ثم لما شاهدوا إحياء الموتى ازدادوا قسوة، فكأن الله تعالى يقول: إذا كانت هذه أفعالهم في ما بينهم ومعاملاتهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به وأنقذهم من الرق والآفة بسببه، فغير بديع ما يعامل به أخلافهم محمداً (عليه السلام)، فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ما ترونه من عنادهم وإعراضهم عن الحق. ورابعها: تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) من نزول العذاب عليهم كما نزل بأسلافهم في تلك الوقائع المعدودة.

وخامسها: تحذير مشركي العرب أن ينزل العذاب عليهم كما نزل على أولئك اليهود، وسادسها: أنه احتجاج على مشركي العرب المنكرين للإعادة مع إقرارهم بالابتداء، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ البقرة: ٧٣ ، إذا عرفت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان شديد الحرص على الدعاء إلى الحق وقبولهم الإيمان منه، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمردهم، فقص الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة تسلية لرسوله في ما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول والاستجابة، فقال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ البقرة: ٧٥ وههنا مسائل:

المسألة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ وجهان: الأول: وهو قول ابن عباس أنه خطاب مع النبي (صلى الله عليه وسلم) خاصة لأنه هو الداعي وهو المقصود بالاستجابة واللفظ وإن كان للعموم، لكنا حملناه على الخصوص لهذه القرينة: روي أنه (عليه السلام) حين دخل المدينة ودعا اليهود إلى كتاب الله وكذبوه فأنزل الله تعالى هذه الآية. الثاني: وهو قول

الحسن أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين. قال القاضي: وهذا أليق بالظاهر؛ لأنه (عليه السلام) وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ويظهر لهم الدلائل وينبههم عليها، فصح أن يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ ويريد به الرسول ومن هذا حاله من أصحابه وإذا كان ذلك صحيحاً فلا وجه لترك الظاهر.

المسألة الثانية: المراد بقوله: ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول (عليه السلام) لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا وخلافه لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب الاستبعاد وجوهاً. أحدها: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم ما آمنوا بموسى (عليه السلام)، وكان هو السبب في أن الله خلصهم من الذل وفضلهم على الكل، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده وظهور أنواع العذاب على المتمردين. الثاني: أفتطمعون أن يؤمنوا ويظهروا التصديق ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك، بل غيره وبدله. الثالث: أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال وكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: القوم مكلفون بأن يؤمنوا بالله. فما الفائدة في قوله:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾، الجواب: أنه يكون إقراراً لهم بما دعوا إليه ولو كان الإيمان لله كما قال تعالى: ﴿فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ لما أقر بنبوته وبتصديقه، ويجوز أن يراد بذلك أن يؤمنوا لأجلكم ولأجل تشددكم في دعائهم إليه فيكون هذا معنى الإضافة.

أما قوله تعالى:﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك الفريق، منهم من قال: المراد بالفريق من كان في أيام موسى (عليه السلام) لأنه تعالى وصف هذا الفريق بأنهم يسمعون كلام الله. والذين سمعوا كلام الله هم أهل الميقات، ومنهم من قال: بل المراد بالفريق من كان في زمن محمد (عليه

الصلاة والسلام)، وهذا أقرب لأن الضمير في قوله تعالى:﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ راجع إلى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ وقد بينا أن الذين تعلق الطمع بإيمانهم هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام. فإن قيل: الذين سمعوا كلام الله هم الذين حضروا الميقات، قلنا: لا نسلم بل قد يجوز في من سمع التوراة أن يقال: إنه سمع كلام الله كما يقال لأحدنا سمع كلام الله إذا قرىء عليه القرآن.

أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال القفال: التحريف التغيير والتبديل وأصله من الانحراف عن الشيء والتحريف عنه، قال تعالى:﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ الأنفال: ١٦، والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه، يقال: قلم محرف إذا كان رأسه قط مائلاً غير مستقيم.

المسألة الثانية؛ قال القاضي: إن التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى، لأن كلام الله تعالى إذا كان باقياً على جهته وغيروا تأويله فإنما يكونون مغيرين لمعناه لا لنفس الكلام المسموع، فإن أمكن أن يحمل على ذلك كما روي عن ابن عباس من أنهم زادوا فيه ونقصوا فهو أولى، وإن لم يمكن ذلك فيجب أن يحمل على تغيير تأويله وإن كان التنزيل ثابتاً، وإنما يمتنع ذلك إذا ظهر كلام الله ظهوراً متواتراً كظهور القرآن، فأما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه، لكن ذلك ينظر فيه، فإن كان تغييرهم له يؤثر في قيام الحجة به فلا بد من أن يمنع الله تعالى منه وإن لم يؤثر في ذلك صح وقوعه فالتحريف الذي يصح في الكلام يجب أن يقسم على ما ذكرناه، فأما تحريف المعنى فقد يصح على وجه ما، لم يعلم قصد الرسول باضطرار فإنه متى علم ذلك امتنع منهم التحريف لما تقدم من علمهم بخلافه كما

يمتنع الآن أن يتأول متأول تحريم لحم الخنزير والميتة والدم على غيرها.

المسألة الثالثة: اعلم أنا إن قلنا بأن المحرفين هم الذين كانوا في زمن موسى (عليه السلام)، فالأقرب أنهم حرفوا ما لا يتصل بأمر محمد (صلى الله عليه وسلم). روي أن قوماً من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به موسى وما نهى عنه، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس، وأما إن قلنا: المحرفون هم الذين كانوا في زمن محمد (عليه الصلاة والسلام) فالأقرب أن المراد تحريف أمر محمد (عليه الصلاة والسلام)، وذلك إما أنهم حرفوا نعت الرسول وصفته أو لأنهم حرفوا الشرائع كما حرفوا آية الرجم وظاهر القرآن لا يدل على أنهم أي شيء حرفوا.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين، فإن عناد البعض لا ينافي إقرار الباقين؟ أجاب القفال عنه فقال: يحتمل أن يكون المعنى كيف يؤمن هؤلاء وهم إنما يأخذون دينهم ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً، فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيروه عن وجهه والمقلدة لا يقبلون إلاّ ذلك ولا يلتفتون إلى قول أهل الحق وهو كقولك للرجل: كيف تفلح وأستاذك فلانا أي وأنت عنه تأخذ ولا تأخذ عن غيره.

المسألة الخامسة: اختلفوا في قوله: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ فقال قائلون: آيسهم الله تعالى من إيمان هذه الفرقة وهم جماعة بأعيانهم. وقال آخرون: لم يؤيسهم من ذلك إلاّ من جهة الاستبعاد له منهم مع ما هم عليه من التحريف والتبديل والعناد، قالوا: وهو كما لا نطمع لعبيدنا وخدمنا أن يملكوا بلادنا. ثم إنا لا نقطع بأنهم لا يملكون بل نستبعد ذلك. ولقائل أن يقول: إن قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، فكان ذلك جزماً بأنهم لا يؤمنون ألبتة فإيمان من أخبر الله عنه أنه لا يؤمن ممتنع، فحينئذ

تعود الوجوه المقررة للخبر على ما تقدم.

أما قوله تعالى:﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، فالمراد أنهم علموا بصحته وفساد ما خلقوه فكانوا معاندين مقدمين على ذلك بالعمد، فلأجل ذلك يجب أن يحمل الكلام على أنهم العلماء منهم وأنهم فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى من بعد في قوله تعالى:﴿ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ ﴾آل عمران: ١٨٧ وقال تعالى: ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٤٦] [الأنعام: ٢٠] ويجب أن يكون في عددهم قلة لأن الجمع العظيم لا يجوز عليهم كتمان ما يعتقدون لأنا إن جوزنا ذلك لم يعلم المحق من المبطل وإن كثر العدد.

أما قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فلقائل أن يقول: قوله تعالى: ﴿عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تكرار لا فائدة فيه: أجاب القفال عنه من وجهين، الأول: من بعد ما عقلوه مراد الله فأولوه تأويلاً فاسداً يعلمون أنه غير مراد الله تعالى. الثاني: أنهم عقلوا مراد الله تعالى، وعلموا أن التأويل الفاسد يكسبهم الوزر والعقوبة من الله تعالى، ومتى تعمدوا التحريف مع العلم بما فيه من الوزر كانت قسوتهم أشد وجراءتهم أعظم، ولما كان المقصود من ذلك تسلية الرسول (عليه الصلاة والسلام) وتصبيره على عنادهم فكلما كان عنادهم أعظم كان ذلك في التسلية أقوى، وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: قال القاضي قوله تعالى:﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾ على ما تقدم تفسيره، يدل على أن إيمانهم من قبلهم لأنه لو كان بخلق الله تعالى فيهم لكان لا يتغير حال الطمع فيهم بصفة الفريق الذي تقدم ذكرهم، ولما صح كون ذلك تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين لأن على هذا القول أمرهم في الإيمان موقوف على خلقه تعالى ذلك، وزواله موقوف على أن لا يخلقه فيهم ومن وجه آخر وهو أعظامه تعالى لذنبهم في التحريف من حيث فعلوه وهم يعلمون صحته، ولو كان ذلك من خلقه لكان بأن يعلموا أو لا يعلموا لا يتغير ذلك وإضافته تعالى التحريف إليهم على وجه الذم تدل

على ذلك، واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مراراً وأطواراً فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثانية: قال أبو بكر الرازي: تدل الآية على أن العالم المعاند فيه أبعد من الرشد وأقرب إلى اليأس من الجاهل، لأن قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ يفيد زوال الطمع في رشدهم لمكابرتهم الحق بعد العلم به.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٧٦ .

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ البقرة: ٧٧

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) والمروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وأن قوله حق ونجده بنعته وصفته في كتابنا، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به، فإن المخالف إذا اعترف بصحة التوراة واعترف بشهادة التوراة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فلا حجة أقوى من ذلك، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضاً من الاعتراف بذلك عند محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، قال القفال: قوله: ﴿ فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مأخوذ من قولهم قد فتح على فلان في علم كذا أي رزق ذلك وسهل له طلبه.

أما قوله: ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ ﴾ ففيه وجوه. أحدها: أنهم جعلوا محاجتهم به وقوله هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله، ألا تراك تقول هو في كتاب الله هكذا وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وثانيها: قال الحسن: أي ليحاجوكم في ربكم لأن المحاجة فيما ألزم الله تعالى من اتباع الرسل تصح أن توصف بأنها محاجة فيه لأنها محاجة في دينه. وثالثها: قال الأصم: المراد يحاجوكم يوم القيامة وعند التساؤل فيكون ذلك زائداً في توبيخكم وظهور فضيحتكم على

رؤوس الخلائق في الموقف لأنه ليس من اعتراف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار فكان القوم يعتقدون أن ظهور ذلك مما يزيد في انكشاف فضيحتهم في الآخرة. ورابعها: قال القاضي أبو بكر: إن المحتج بالشيء قد يحتج ويكون غرضه من إظهار تلك الحجة حصول السرور بسبب غلبة الخصم وقد يكون غرضه منه الديانة والنصيحة، فقط ليقطع عذر خصمه ويقرر حجة الله عليه فقال القوم عند الخلوة قد حدثتموهم بما فتح الله عليكم من حجتهم في التوراة فصاروا يتمكنون من الاحتجاج به على وجه الديانة والنصيحة، لأن من يذكر الحجة على هذا الوجه قد يقول لصاحبه قد أوجبت عليك عند الله وأقمت عليك الحجة بيني وبين ربي فإن قبلت أحسنت إلى نفسك وإن جحدت كنت الخاسر الخائب. وخامسها: قال القفال: يقال: فلان عندي عالم أي في اعتقادي وحكمي، وهذا عند الشافعي حلال وعند أبي حنيفة حرام، أي في حكمهما وقوله: ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ ﴾ أي لتصيروا محجوجين بتلك الدلائل في حكم الله. وتأول بعض العلماء قوله تعالى: ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ النور: ١٣ أي في حكم الله وقضائه لأن القاذف إذا لم يأت بالشهود لزمه حكم الكاذبين وإن كان في نفسه صادقاً.

أما قوله: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ففيه وجوه.أحدها: أنه يرجع إلى المؤمنين فكأنه تعالى قال: أفلا تعقلون لما ذكرته لكم من صفتهم أن الأمر لا مطمع لكم في إيمانهم. وهو قول الحسن.وثانيها: أنه راجع إليهم فكأن عند ما خلا بعضهم ببعض قالوا لهم أتحدثونهم بما يرجع وباله عليكم وتصيرون محجوجين به، أفلا تعقلون أن ذلك لا يليق بما أنتم عليه. وهذا الوجه أظهر لأنه من تمام الحكاية عنهم فلا وجه لصرفه عنهم إلى غيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ ففيه قولان، الأول: وهو قول الأكثرين إن اليهود كانوا يعرفون الله ويعرفون أنه تعالى يعلم السر والعلانية فخوفهم الله به. الثاني: أنهم ما علموا بذلك فرغبهم

بهذا القول في أن يتفكروا فيعرفوا أن لهم رباً يعلم سرهم وعلانيتهم وأنهم لا يأمنون حلول العقاب بسبب نفاقهم، وعلى القولين جميعاً، فهذا الكلام زجر لهم عن النفاق، وعن وصية بعضهم بعضاً بكتمان دلائل نبوة محمد. والأقرب أن اليهود المخاطبين بذلك كانوا عالمين بذلك، لأنه لا يكاد يقال على طريق الزجر: أولا يعلم كيت وكيت إلا وهو عالم بذلك الشيء، ويكون ذلك الشيء زاجراً له عن ذلك الفعل، وقال بعضهم: هؤلاء اليهود كيف يستجيزون أن يسر إلى إخوانهم النهي عن إظهار دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم ليسوا كالمنافين الذين لا يعلمون الله ولا يعلمون كونه عالماً بالسر والعلانية، فشأنهم من هذه الجهة أعجب. قال القاضي: الآية تدل على أمور. أحدها: أنه تعالى إن كان هو الخالق لأفعال العباد فكيف يصح أن يزجرهم عن تلك الأقوال والأفعال. وثانيها: أنها تدل على صحة الحجاج والنظر وأن ذلك كان طريقة الصحابة والمؤمنين وأن ذلك كان ظاهراً عند اليهود حتى قال بعضهم لبعض ما قالوه، وثالثها: أنها تدل على أن الحجة قد تكون إلزامية لأنهم لما اعترفوا بصحة التوراة وباشتمالها على ما يدل على نبوة محمد (عليه الصلاة والسلام) لا جرم لزمهم الاعتراف بالنبوة ولو منعوا إحدى تلك المقدمتين لما تمت الدلالة. ورابعها: أنها تدل على أن الآتي بالمعصية مع العلم بأنّها معصية يكون أعظم جرماً ووزراً، والله أعلم.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٨ - ٧٩ .

اعلم أن المراد بقوله:﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ اليهود لأنه تعالى لما وصفهم بالعناد وأزال الطمع عن إيمانهم بين فرقهم، فالفرقة الأولى هي الفرقة الضالة المضلة، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. والفرقة الثانية: المنافقون، والفرقة الثالثة: الذين يجادلون المنافقين، والفرقة الرابعة: هم المذكورون

في هذه الآية وهم العامة الأميون الذين لا معرفة عندهم بقراءة ولا كتابة وطريقتهم التقليد وقبول ما يقال لهم، فبين الله تعالى أن الذين يمتنعون عن قبول الإيمان ليس سبب ذلك الامتناع واحداً بل لكل قسم منهم سبب آخر ومن تأمل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية من شرح فرق اليهود وجد ذلك بعينه في فرق هذه الأمة، فإن فيهم من يعاند الحق ويسعى في إضلال الغير وفيهم من يكون متوسطاً، وفيهم من يكون عامياً محضاً مقلداً، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في الأمي فقال بعضهم هو من لا يقر بكتاب ولا برسول. وقال آخرون: من لا يحسن الكتابة والقراءة وهذا الثاني أصوب لأن الآية في اليهود وكانوا مقرين بالكتاب والرسول ولأنه (عليه الصلاة والسلام) قال: (نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وذلك يدل على هذا القول، ولأن قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لا يليق إلاّ بذلك.

المسألة الثانية: «الأماني» جمع أمنية ولها معانٍ مشتركة في أصل واحد، أحدها: ما تخيله الإنسان فيقدر في نفسه وقوعه ويحدثها بكونه، ومن هذا قولهم: فلان يعد فلاناً ويمنيه ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء: ١٢٠ فإن فسرنا الأماني بهذا كان قوله: (إلاّ أماني) إلاّ ما هم عليه من أمانيهم في أن الله تعالى لا يؤاخذهم بخطاياهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلاّ أياماً معدودة. وثانيها: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ إلاّ أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فقبلوها على التقليد، قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به: أهذا شيء رويته أم تمنيته أم اختلقته. وثالثها: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي إلاّ ما يقرأون من قوله: تمنى كتاب الله أول ليلة.

وفي الآية مسائل. أحدها: أن المعارف كسبية لا ضرورية فلذلك ذم من لا يعلم ويظن. وثانيها: بطلان التقليد مطلقاً وهو مشكل لأن التقليد في الفروع جائز عندنا. وثالثها: أن المضل وإن كان مذموماً فالمغتر بإضلال المضل أيضاً

مذموم لأنه تعالى ذمهم وإن كانوا بهذه الصفة، ورابعها: أن الاكتفاء بالظن في أصول الدين غير جائز والله أعلم. أما قوله تعالى:﴿ فَوَيۡلٞ ﴾ فقالوا: الويل كلمة يقولها كل مكروب، وقال ابن عباس: إنه العذاب الأليم. وعن سفيان الثوري: إنه مسيل صديد أهل جهنم، وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إنه واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» قال القاضي: «ويل» يتضمن نهاية الوعيد والتهديد فهذا القدر لا شبهة فيه سواء كان الويل عبارة عن وادٍ في جهنم أو عن العذاب العظيم.

أما قوله تعالى: ﴿ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ ففيه وجهان. الأول: أن الرجل قد يقول كتبت إذا أمر بذلك ففائدة قوله: ﴿ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أنه لم يقع منهم إلاّ على هذا الوجه. الثاني: أنه تأكيد وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك. أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

فالمراد أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها ويضم إليها أنه مهد طريقاً في الإضلال باقياً على وجه الدهر، فلذلك عظم تعالى ما فعلوه.

أما قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فالمراد أن كتبتهم لما كتبوه ذنب عظيم بانفراده، وكذلك أخذهم المال عليه، فلذلك أعاد ذكر الويل في الكسب، ولو لم يعد ذكره كان يجوز أن يقال: إن مجموعهما يقتضي الوعيد العظيم دون كل واحد منهما، فأزال الله تعالى هذه الشبهة واختلفوا في قوله تعالى:﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ هل المراد ما كانوا يأخذون على هذه الكتابة والتحريف فقط أو المراد بذلك سائر معاصيهم والأقرب في نظام الكلام أنه

راجع إلى المذكور من المال المأخوذ على هذا الوجه وإن كان الأقرب من حيث العموم أنه يشمل الكل، لكن الذي يرجح الأول أنه متى لم يقيد كسبهم بهذا القيد لم يحسن الوعيد عليه لأن الكسب يدخل فيه الحلال والحرام، فلا بد من تقييده وأولى ما يقيد به ما تقدم ذكره. قال القاضي: دلت الآية على أن كتابتهم ليست خلقاً لله تعالى، لأنها لو كانت خلقاً لله تعالى لكانت إضافتها إليه تعالى بقولهم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ ذلك حقيقة لأنه تعالى إذا خلقها فيهم فهب أن العبد مكتسب إلاّ أن انتساب الفعل إلى الخالق أقوى من انتسابه إلى المكتسب فكان اسناد تلك الكتبة إلى الله تعالى أولى من إسنادها إلى العبد، فكان يجب أن يستحقوا الحمد على قولهم فيها. أنها من عند الله ولما لم يكن كذلك علمنا أن تلك الكتبة ليست مخلوقة لله تعالى. والجواب: أن الداعية الموجبة لها من خلق الله تعالى بالدلائل المذكورة فهي أيضاً تكون كذلك، والله أعلم.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٨٠

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من قبائح أقوالهم وأفعالهم وهو جزمهم بأن الله تعالى لا يعذبهم إلاّ أياماً قليلة، وهذا الجزم لا سبيل إليه بالعقل ألبتة أما على قولنا، فلأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه في فعله، فلا طريق إلى معرفة ذلك إلاّ بالدليل السمعي، وأما على قول المعتزلة فلأن العقل يدل عندهم على أن المعاصي يستحق بها من الله العقاب الدائم، فلما دل العقل على ذلك احتج في تقدير العقاب مدة ثم في زواله بعدها إلى سمع يبين ذلك، فثبت أن على المذهبين لا سبيل إلى معرفة ذلك إلاّ بالدليل السمعي، وحيث توجد الدلالة السمعية لم يجز الجزم بذلك، وههنا مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير الأيام المعدودة وجهين.الأول: أن لفظ الأيام لا تضاف إلا إلى العشرة فما دونها، ولا تضاف إلى ما فوقها. فيقال: أيام

خمسة وأيام عشرة ولا يقال أيام أحد عشر إلاّ أن هذا يشكل بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤]، هي أيام الشهر كله، وهي أزيد من العشرة. ثم قال القاضي: إذا ثبت أن الأيام محمولة على العشرة فما دونها فالأشبه أن يقال: إنه الأقل أو الأكثر لأن من يقول ثلاثة يقول أحمله على أقل الحقيقة فله وجه، ومن يقول عشرة يقول أحمله على الأكثر وله وجه، فأما حمله على الواسطة أعني على ما هو أقل من العشرة وأزيد من الثلاثة فلا وجه له، لأنه ليس عدد أولى من عدد اللهم إلاّ إذا جاءت في تقديرها رواية صحيحة فحينئذ يجب القول بها، وجماعة من المفسرين قدروها بسبعة أيام، قال مجاهد: إن اليهود كانت تقول: الدنيا سبعة آلاف سنة فالله تعالى يعذبهم مكان كل ألف سنة يوماً، فكانوا يقولون: إن الله تعالى يعذبنا سبعة أيام. وحكى الأصم عن بعض اليهود أنهم عبدوا العجل سبعة أيام فكانوا يقولون إن الله تعالى يعذبنا سبعة أيام وهذان الوجهان ضعيفان. أما الأول: فلأنه ليس بين كون الدنيا سبعة آلاف سنة وبين كون العذاب سبعة أيام مناسبة وملازمة ألبتة. وأما الثاني: فلأنه لا يلزم من كون المعصية مقدرة بسبعة أيام أن يكون عذابها كذلك. أما على قولنا فلأنه يحسن من الله كل شيء بحكم المالكية، وأما عند المعتزلة فلأن العاصي يستحق على عصيانه العقاب الدائم ما لم توجد التوبة أو العفو، فإن قيل: أليس أنه تعالى منع من استيفاء الزيادة فقال:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الشورى: ٤٠ فوجب أن لا يزيد العقاب على المعصية؟ قلنا: إن المعصية تزداد بقدر النعمة. فلما كانت نعم الله على العباد خارجة عن الحصر والحد لا جرم كانت معصيتهم عظيمة جداً.

الوجه الثاني: روي عن ابن عباس أنه فسر هذه الأيام بالأربعين، وهو عدد الأيام التي عبدوا العجل فيها، والكلام عليه أيضاً كالكلام على السبعة.

الوجه الثالث: قيل في معنى «معدودة» قليلة، كقوله تعالى:﴿ وَشَرَوْهُ

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يوسف: ٢٠ ، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد والخبر، وإنما سمي خبره سبحانه عهداً لأن خبره سبحانه أوكد من العهود المؤكدة منا بالقسم والنذر، فالعهد من الله لا يكون إلاّ بهذا الوجه.

المسألة الثانية: قال صاحب «الكشاف»: «فلن يخلف الله» متعلق بمحذوف وتقديره إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿اتّخَذْتُم﴾ ليس باستفهام، بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل تعالى حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستفهمهم، بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلاّ بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعي وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ يدل على أنه سبحانه وتعالى منزه عن الكذب وعده ووعيده. قال أصحابنا: لأن الكذب صفة نقص، والنقص على الله محال، وقالت المعتزلة: لأنه سبحانه عالم بقبح القبيح وعالم بكونه غنياً عنه، والكذب قبيح لأنه كذب والعالم بقبح القبيح وبكونه غنياً عنه يستحيل أن يفعله، فدل على أن الكذب منه محال، فلهذا قال: ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ ، فإن قيل: العهد هو الوعد وتخصيص الشيء بالذكر يدل على نفي ما عداه، فلما خص الوعد بأنه لا يخلفه علمنا أن الخلف في الوعيد جائز، ثم العقل يطابق ذلك، لأن الخلف في الوعد لؤم وفي الوعيد كرم. قلنا: الدلالة المذكورة قائمة في جميع أنواع الكذب.

﴿بَلَىٰ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

البقرة: ٨١

قال صاحب الكشاف: «بلى» إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّار﴾، أي بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . أما

السيئة فإنها تتناول جميع المعاصي. قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ الشورى: ٤٠ ، ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ النساء: ١٢٣ ولما كان من الجائز أن يظن أن كل سيئة صغرت أو كبرت فحالها سواء في أن فاعلها يخلد في النار لا جرم بين تعالى أن الذي يستحق به الخلود أن يكون سيئة محيطة به، ومعلوم أن لفظ الإحاطة حقيقة في إحاطة جسم بجسم آخر كإحاطة السور بالبلد والكوز بالماء وذلك ههنا ممتنع فنحمله على ما إذا كانت السيئة كبيرة لوجهين. أحدهما: أن المحيط يستر المحاط به والكبيرة لأنّها محيطة لثواب الطاعات كالساترة لتلك الطاعات، فكانت المشابهة حاصلة من هذه الجهة، والثاني: أن الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت على تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان، بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه، فكأنه تعالى قال: بلى من كسب كبيرة وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، فإن قيل: هذه الآية وردت في حق اليهود، قلنا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، هذا هو الوجه الذي استدلت المعتزلة به في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر.

واعلم أن هذه المسألة من معظمات المسائل، ولنذكرها ههنا فنقول: اختلف أهل القبلة في وعيد أصحاب الكبائر، فمن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان، منهم من أثبت الوعيد المؤبد وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج. ومنهم من أثبت وعيداً منقطعاً وهو قول بشر المريسي والخالد، ومن الناس من قطع بأنه لا وعيد لهم وهو قول شاذ ينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر، والقول الثالث: أنا نقطع بأنه سبحانه وتعالى يعفو عن بعض المعاصي ولكنا نتوقف في حق كل أحد على التعيين أنه هل يعفو عنه أم لا، ونقطع بأنه تعالى إذا عذب أحداً منهم مدة فإنه لا يعذبه أبداً، بل يقطع عذابه، وهذا قول أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وأكثر الإمامية.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

البقرة: ٧٢

اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلاّ وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال (ص): «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»، وذلك الاعتدال لا يحصل إلاّ بهذا الطريق.وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سببا للعرفان، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان لأنه تعالى قال:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً، أجاب القاضي بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة، إلاّ أن قوله: آمن لا يفيد إلاّ أنه فعل فعلا واحدا من أفعال الإيمان، فلهذا حسن أن يقول﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾. والجواب: أن فعل الماضي يدل على حصول المصدر في زمان مضى والإيمان هو المصدر، فلو دل ذلك على جميع الأعمال الصالحة لكان قوله: آمن دليلاً على صدور كل تلك الأعمال منه والله أعلم.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن صاحب الكبيرة قد يدخل الجنة لأنا نتكلم فيمن أتى بالإيمان وبالأعمال الصالحة، ثم أتى بعد ذلك بالكبيرة ولم يتب عنها فهذا الشخص قبل إتيانه بالكبيرة كان قد صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في ذلك الوقت، ومن صدق عليه ذلك صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات وإذا صدق عليه ذلك وجب اندراجه تحت قوله﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

***الطباطبائي:**

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، في القلب بمنزلة الصلابة في الحجر وكلمة أو بمعنى بل، والمراد بكونها بمعنى بل انطباق معناه على موردها، وقد بيّن شدة قسوة قلوبهم بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وقوبل فيه بين الحجارة والماء لأنّ الحجارة يضرب بها المثل في الصلابة والماء يضرب به المثل في اللين فهذه الحجارة على كمال صلابتها يتفجر منها الأنهار على لين مائها وتشقق فيخرج منها الماء على لينه وصلابتها، ولا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحق، ولا قول حق يلائم الكمال الواقع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾، وهبوط الحجارة ما نشاهد من إنشقاق الصخور على قلل الجبال، وهبوط قطعات منها بواسطة الزلازل، وصيرورة الجمد الذي يتخللها في فصل الشتاء ماءً في فصل الربيع إلى غير ذلك، وعد هذا الهبوط المستند إلى أسبابها الطبيعية هبوطاً من خشية الله تعالى لأن جميع الأسباب منتهية إلى الله سبحانه فانفعال الحجارة في هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر الله سبحانه إياها بالهبوط، وهي شاعرة لأمر ربها شعوراً تكوينياً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء: ٤٤ ، وقال تعالى: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ البقرة: ١١٦ ، والانفعال الشعوري هو الخشية فهي هابطة من خشية الله تعالى، فالآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ الرعد: ١٣ ، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ الرعد: ١٥ ، حيث عد صوت الرعد تسبيحاً بالحمد وعد الظلال ساجدة لله سبحانه إلى غير ذلك من الآيات التي جرى القول فيها مجرى التحليل كما لا يخفى.

وبالجملة فقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾، بيان ثان لكون قلوبهم أقسى من الحجارة فإن الحجارة تخشى الله تعالى، فتهبط من خشيته، وقلوبهم لا تخشى الله تعالى ولا تهابه.

وفي المحاسن عن الصادق (عليه السلام) في قول الله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، أقوة الأبدان أوقوة القلب؟ قال (عليه السلام) فيهما جميعاً.

أقول ورواه العياشي أيضاً في تفسيره.

وفي تفسير العيّاشي. عن الحلبي في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾البقرة: ٦٣، قال قال أذكروا ما فيه وأذكروا ما في تركه من العقوبة.

أقول: وقد استفيد ذلك من المقام من قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا﴾.

وفي الدر المنثور عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم) لولا أن بني إسرائيل قالوا وإنا إن شاء الله لمتهدون ما أعطوا أبداً ولوأنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وفي تفسير القمي عن إبن فضال قال: «سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: إن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وإنما كانوا يحتاجون إلى ذنبها فشدد الله عليهم».

وفي المعاني وتفسير العيّاشي عن البزنطي قال سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: «إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثم أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ثم جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى إن سبط آل فلان قتلوا فلاناً فأخبر من قتله قال إئتوني ببقرة قالوا أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا أدع لنا ربك يُبيّن لنا ما هي؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر يعني لا صغيرة ولا كبيرة عوان بين ذلك ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم ولكن شددوا فشدّد الله عليهم، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا أدع لنا

ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها. قالوا الآن جئت بالحق فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل فقال لا أبيعها إلاّ بملئ مسك ذهباً، فجاؤوا إلى موسى وقالوا له ذلك قال إشتروها فاشتروها وجاؤوا بها فأمر بذبحها ثم أمر أن يضربوا الميت بذنبها فلما فعلوا ذلك حيي المقتول وقال يا رسول الله إن إبن عمي قتلني، دون من إدعى عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله فقال لرسول الله موسى بعض أصحابه إن هذه البقرة لها نبأ فقال وما هو؟ قال إن فتى من بني إسرائيل كان باراً بأبيه وإنه اشترى بيعاً فجاء إلى أبيه والأقاليد تحت رأسه فكره أن يوقظه فترك ذلك البيع فاستيقظ أبوه فأخبره فقال أحسنت، هذه البقرة فهي لك عوضاً مما فاتك فقال له رسول الله موسى أنظر إلى البر ما بلغ بأهله.

أقول والروايات كما ترى منطبقة على إجمال ما استفدناه من الآيات الشريفة.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾البقرة: ٧٥ - ٨٢ .

السياق وخاصة ما في ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار، وخاصة كفار المدينة لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثة ظهيراً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعندهم علم الدين والكتاب، ولذلك كان الرجاء في إيمانهم أكثر من غيرهم، وكان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجاً فيتأيد بذلك ويظهر نوره، وينتشر دعوته، ولما هاجر النبي إلي المدينة وكان من أمرهم ما كان تبدل الرجاء قنوطاً، والطمع يأساً، ولذلك يقول سبحانه:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾، يعني أن كتمان الحقائق وتحريف الكلام من شيمهم، فلا ينبغي أن يستبعد نكولهم عمّا قالوا ونقضهم ما أبرموا.

قوله تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾، فيه التفات من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب النبي والذين آمنوا ووضعهم موضع الغيبة وكان الوجه فيه أنه لما قص قصة البقرة وعدل فيها من خطاب بني إسرائيل إلى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التورية كما مرّ، أُريد إتمام البيان بنحو الغيبة بالإشارة إلى تحريفهم كتاب الله تعالى فصرف لذلك وجه الكلام إلى الغيبة.

قوله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا ﴾ إلخ، لا تقابل بين الشرطين وهما مدخولاً إذا في الموضعين كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾البقرة: ١٤ ، بل المراد بيان موضعين آخرين من مواضع جرائمهم وجهالتهم.

أحدهما: أنهم ينافقون فيتظاهرون بالإيمان صوناً لأنفسم من الإيذاء والطعن والقتل. وثانيهما: أنهم يريدون تعمية الأمر وإبهامه على الله سبحانه العالم بسرهم وعلانيتهم وذلك أن العامة منهم، وهم أولوا بساطة النفس ربما كانوا ينبسطون للمؤمنين، فيحدثونهم ببعض ما في كتبهم من بشارات النبي أوما ينفع المؤمنين في تصديق النبوة، كما يلوح من لحن الخطاب

فكان أولياؤهم ينهونهم معللاً بأن ذلك مما فتح الله لهم، فلا ينبغي أن يفشى للمؤمنين، فيحاجوهم به عند ربهم كأنهم لولم يحاجوهم به عند ربهم لم يطلع الله عليه فلم يؤاخذهم بذلك ولازم ذلك أن الله تعالى إنما يعلم علانية الامر، دون سره وباطنه وهذا من الجهل بمكان، فرد الله سبحانه عليهم بقوله:﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾الآية فإن هذا النوع من العلم ـ وهوما يتعلق بظاهر الأمر دون باطنه ـ إنما هو العلم المنتهي إلى الحس الذي يفتقر إلى بدن مادي مجهز بآلات مادية مقيد بقيود الزمان والمكان مولود لعلل أخرى مادية، وما هو كذلك مصنوع من العالم لا صانع العالم.

وهذا أيضاً من شواهد ما قدمناه آنفا أن بني إسرائيل لإذعانهم بأصالة المادة كانوا يحكمون في الله سبحانه بما للمادة من الأحكام، فكانوا يظنونه موجوداً فعالاً في المادة مستعلياً قاهراً عليه، ولكن بعين ما تفعل علة مادية وتستعلي وتقهر على معلول مادي، وهذا أمر لا يختص به اليهود، بل هو شأن كل من يذعن باصالة المادة من الملليين وغيرهم، فلا يحكمون في ساحة قدسه سبحانه إلاّ بما يعقلون من أوصاف الماديات من الحيوة والعلم والقدرة والاختيار والإرادة والقضاء والحكم وتدبير الأمر وإبرام القضاء إلى غير ذلك، وهذا داء لا ينجع معه دواء، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون، حتى آل الأمر إلى أن استهزأ بهم من لا مسكة له في دينهم الحق ولا قدم له في معارفهم الحقة، قائلاً: أن المسلمين يروون عن نبيهم أن الله خلق آدم على صورته وهم معاشر أمته يخلقون الله على صورة آدم، فهؤلاء يدور أمرهم بين أن يثبتوا لربهم جميع أحكام المادة، كما يفعله المشبهة من المسلمين أومن يتلو تلوهم وإن لم يعرف بالتشبيه، أولا يفهموا شيئاً من أوصاف جماله، فينفوا الجميع بإرجاعها إلى السلوب قائلاً: إن ما يبين أوصافه تعالى من الالفاظ إنما يقع عليه بالاشتراك اللفظي، فلقولنا: إنه موجود ثابت عالم قادر حي معان لا

نفهمها ولا نعقلها، فاللازم إرجاع معانيها إلى النفي، فالمعنى مثلاً أنه ليس بمعدوم، ولا زائل، ولا جاهل، ولا عاجز ولا ميت فاعتبروا يا أولي الأبصار فهذا بالإستلزام زعم منهم بأنهم يؤمنون بما لا يدرون، ويعبدون ما لا يفهمون، ويدعون إلى ما لا يعقلون، ولا يعقله أحد من الناس، وقد كفتهم الدعوة الدينية مؤنة هذه الأباطيل بالحق فحكم على العامة أن يحفظوا حقيقة القول ولب الحقيقة بين التشبيه والتنزيه فيقولوا إن الله سبحانه شيء لا كالأشياء وأن له علماً لا كعلومنا، وقدرة لا كقدرتنا وحياة لا كحياتنا، مريد لا بهمامة، متكلم لا بشق فم، وعلى الخاصة أن يتدبروا في آياته ويتفقهوا في دينه فقد قال الله سبحانه: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾الزمر: ٩، والخاصة كما لا يساوون العامة في درجات المعرفة، كذلك لا يساوونهم في التكاليف المتوجهة إليهم، فهذا هوالتعليم الديني النازل في حقهم لوأنهم كانوا يأخذون به.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾البقرة: ٧٨ .، الأمي من لا يقرأ ولا يكتب منسوب إلى الأم لأن عطوفة الأم وشفقتها كانت تمنعها أن ترسل ولدها إلى المعلم وتسلمه إلى تربيته، فكان يكتفي بتربية الأُم، والأماني جمع أُمنية، وهي الأكاذيب، فمحصل المعنى أنهم بين من يقرأ الكتاب ويكتبه فيحرفه وبين من لا يقرأ ولا يكتب ولا يعلم من الكتاب إلاّ أكاذيب المحرفين. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ﴾، الويل هو الهلكة والعذاب الشديد والحزن والخزى والهوان وكل ما يحذره الإنسان أشد الحذر والإشتراء هوالابتياع.

قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم ﴾ إلخ، الضمائر إما راجعة إلى بني إسرائيل أولخصوص المحرفين منهم ولكل وجه وعلى الأول يثبت الويل للأميين منهم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ إلخ، الخطيئة

هي الحالة الحاصلة للنفس من كسب السيئة، ولذلك أتي بإحاطة الخطيئة بعد ذكر كسب السيئة وإحاطة الخطيئة توجب أن يكون الإنسان المحاط مقطوع الطريق إلى النجاة كان الهداية لإحاطة الخطيئة به لا تجد إليه سبيلاً فهو من أصحاب النار مخلداً فيها ولو كان في قلبه شيء من الإيمان بالفعل، أو كان معه بعض ما لا يدفع الحق من الأخلاق والملكات، كالإنصاف والخضوع للحق، أو ما يشابههما لكانت الهداية والسعادة ممكنتي النفوذ إليه، فإحاطة الخطيئة لا تتحقق إلاّ بالشرك الذي قال تعالى فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ ، ومن جهة أُخرى إلاّ بالكفر وتكذيب الآيات كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٣٩ ، فكسب السيئة وإحاطة الخطيئة كالكلمة الجامعة لما يوجب الخلود في النار.

واعلم أن هاتين الآيتين قريبتا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾البقرة: ٦٢ وإنما الفرق أن الآيتين أعني قوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾، في مقام بيان ان الملاك في السعادة إنما هو حقيقة الإيمان والعمل الصالح دون الدعاوي والآيتان المتقدمتان أعني قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلخ، في مقام بيان أن الملاك فيها هوحقيقة الإيمان والعمل الصالح دون التسمي بالأسماء.

في المجمع في قوله: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ﴾ الآية، عن الباقر (عليه السلام) قال: كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فنهى كبراءهم عن ذلك وقالوا لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فيحاجوهم به عند ربهم فنزلت هذه الآية. وفي الكافي عن أحدهما (عليهما السلام) في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾، قال: إذا جحدوا ولآية أمير المؤمنين فاؤلئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

أقول وروي قريباً من هذا المعنى الشيخ في أماليه عن النبي (صلى الله

عليه وآله وسلم)، والروايتان من الجري والتطبيق على المصداق، وقد عدّ سبحانه الولاية حسنة في قوله: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ ﴾ الشورى: ٢٣ ، ويمكن أن يكون من التفسير لما سيجيء في سورة المائدة أنها العمل بما يقتضيه التوحيد وإنما نسب إلى علي (عليه السلام) لأنه أول فاتح من هذه الأمة لهذا الباب. فانتظر.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

أجمع المفسرون بأشكال متعددة وعبارات مختلفة على معنى ومنطوق الآيات الكريمات والتي تذم اليهود وأفعالهم.

وقد تميز القرطبي والشيرازي والرازي بشكل واضح.

وهنا إشارة حول ما قاله الرازي في الآية ٨١: «... وهذا قول أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وأكثر الإمامية».

أردنا من خلال هذه الإشارة التأكيد على ما مرّ معنا سابقاً لجهة أننا نعتقد بأن بعض العبارات الواردة في تفسير الرازي قد تكون منحولة عليه، وخاصة تلك العبارات التي فيها غلظة أو شبهة ذم للإمامية، حيث أن منهج هذا العالم الجليل لا يتلاءم مع ما قد ينسب إليه والله أعلم.